بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث الحادى والثلاثون

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاثة لا ترى أعينهم النار : عينٌ حرَستْ فى سبيل الله ، وعينٌ بَكَتْ من خشية الله، وعينٌ كَفَّتْ عن محارم الله » .

تخريج الحديث :

الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب التوبة والزهد : باب : الترغيب فى البكاء من خشية الله تعالى ٤/ ٢٣٠ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعًا ، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى ، ورواته ثقات ، إلا أنَّ حبيب العنقزى لا يحضرنى الآن حاله » .

وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب : الحرس فى سبيل الله ٥/٢٨٨ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعًا، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى، وفيه أبو حبيب العنقزى، ويقال : القنوى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

المعنى العام للحديث :

رسالة الإنسان بَلْهَ المسلم فى هذه الأرض ليست بالأمر الهيِّن ولا باليسير ، إذ هو مطالب أن يعبِّد نفسه لله فيعمر هذه الأرض، وينزل على حكم الله فى كل ما يأتى وما يدع ، ويزيد المسلم على ذلك، أن عليه أن يقوم بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومجاهدة الكفَّار والمنافقين الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، مجاهدًا بذلك نفسه الأمارة بالسوء، وشياطين الإنس والجن، والدنيا بشدائدها وامتحاناتها، بزخارفها وزيناتها، مستمرًا فى هذه المجاهدة إلى أن يلقى الله، دون انحراف أو تبديل، وذلك فيه من الصعوبة والمشقة، والتعب ما فيه .

ولا يستعذب الإنسان بَلْهَ المسلم هذه الصعوبة ، ولا تهون عليه تلك المشقات والمتاعب إلا إذا كان الثمن الذى يتقاضاه أكبر، وأعظم من هذه الصعوبات، وتلك المشقات والمتاعب .

والحديث الذى نحنُ بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن نوعًا غاليًا من الثمن يُعطاهُ المرء المسلم حين يجاهد نفسه فى الالتزام بثلاثة أنواع من الطاعات والتكاليف، متحملا بذلك المشاق والمتاعب .

أما هذه الطاعات وتلك التكاليف :

فأولها : السهر فى الحراسة فى سبيل الله : حمايةً للمجاهدين ، وحمايةً للثغور، وحمايةً للحقِّ، وصيانة للدماء والأموال والأعراض ونحوها، إذ يقول ﷺ : « عينٌ حرستْ فى سبيل الله » .

وثانيها : البكاء إجلالاً وتعظيمًا وخشيةً لله ـ عز وجل ـ إذ يقول ﷺ : « وعينٌ بكتْ من خشية الله » .

وثالثها : غض البصر، وكف الطرف عن محارم الله، إذ يقول ﷺ : « وعينٌ كَفَّتْ عن محارم الله »

وأمَّا الثمن ، فهو صيانة العين على اعتبار أنها العضو الذى تعب وتحمل المشاق فى سبيل إتيان هذه الطاعات وتلك التكاليف، صيانتها عن أن ترى النار فضلاً عن أن تُعذَّب بها، وإذا سَلِمَتْ العين من رؤية النار والتعذيب بها، سَلِمَ صاحبها وحاملها من باب أولى ، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من ذلك، ويعذب صاحبها، يقول ﷺ : «ثلاثة لا ترى أعينهم النار » .

وحتى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : مفهوم العدد فى قوله ﷺ : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار . . . » وجمال هذا التعبير .

الجانب الثانى : معنى الحراسة فى سبيل الله، وصورها، وأهميتها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل الحراسة فى سبيل الله .

الجانب الثالث : معنى خشية الله، والفرق بينها وبين الخوف، والخشية ومظاهرها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل البكاء من خشية الله .

الجانب الرابع : معنى كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل غض الطرف عن محارم الله .

obeikandi.com

الجانب الأول : مفهوم العدد فى قوله ﷺ : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار ... » وجمال هذا التعبير :

والعدد فى قوله ﷺ : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار » لا مفهوم له، بدليل ورود الأحاديث بخصال أخرى غير هذه الثلاثة توجب لصاحبها السَّلامة من النار ، ومنها قوله ﷺ : « ثلاثة أعين لا تمسُّها النار : عين فقئتْ فى سبيل الله، وعينٌ حرست فى سبيل الله، وعينٌ بكت من خشية الله » [(١)] ، وقوله ﷺ : « عينان لا تمسُّهما النار : عين بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس فى سبيل الله » [(٢)] .

فحصل من مجموع الحديثين مع حديث الباب أربع خصال : توجب لصاحبها السلامة من النار : المعبّر عنها بسلامة العين من أن تمسها النار وهى : كف العين عن محارم الله، والبكاء من خشية الله، والسهر للحراسة فى سبيل الله، وذهاب العين فداءً لدين الله .

وجمال هذا التعبير أنه نيَّة بالأدنى على الأعلى ، يعنى : أنَّ من لم ير النار فإنه يسلم من التعذيب بها من باب أولى، كما أطلق الجزء وأراد الكل، يعنى : إذا سلمت العين من رؤية النار، سلم صاحبها، إذ الأعضاءُ يتداعى بعضها إلى البعض فى الشدة وفى الرخاء.

الجانب الثانى : معنى الحراسة فى سبيل الله وصورها وأهميتها ، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل هذه الحراسة :

والحراسة فى سبيل الله تعنى : حماية المسلمين وثغورهم، وديارهم من عدوان المعتدين، وتطاول المتطاولين بكل ما يمكن من أساليب ووسائل، شريطة ألا تتعارض هذه الأساليب، وتلك الوسائل مع مبادئ الدين الحنيف، ولذلك صور، منها :

١ ـ تعليم المسلمين، وتفقيههم أمر دينهم، واطلاعهم على خطط ومكائد العدو، وكيفية إحباط هذه الخطط، وتلك المكائد، كيلا يُؤْتَى المسلمون من قِبَل أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)** ﴾ [التوبة] .

---

(١) الحديث هو حديث الباب، وسبق تخريجه .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

٢ ـ تربية المسلمين على الالتزام بالإسلام الحقِّ، كلٌّ فى ميدانه، الرَّاعى مع رعيته، والرجل فى أهله، والمرأة فى بيت زوجها ومع ولده، والخازن فى مال سيِّده، والجار مع جاره، والأخ مع أخيه، وهلمَّ جرا . . .

٣ ـ والمرابطة على الثغور والأطراف المتاخمة للعدو، والتى يخشى منها التسلل إلى بلاد المسلمين، وإيذائهم فى دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأوطانهم، ومقدَّساتهم.

٤ ـ حماية المجاهدين وقيادتهم فى ميدان الجهاد، بأعين ساهرة مفتوحة، وهمَّة مجموعة، وأذان صاغية واعية، وأعصاب صاحية منتبهة، وقلب حاضر .

٥ ـ القيام على أسَر المجاهدين بتوفير حاجياتهم من طعام وشراب ولباس، وسكنى، وتعليم، وتطبيب، وأمن، ونحو ذلك، حتى يرجع هؤلاء المجاهدون من ميدان الجهاد. . . إلى غير ذلك من الصور .

وتظهر أهمية هذه الحراسة فى أنها تكون سببًا فى تأمين المسلمين على دينهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وذرياتهم، ومقدَّساتهم وأوطانهم كيلا يتطاول عليها المتطاولون، أو يعبث بها العابثون، الأمر الذى يساعد المسلمين فى النهاية ويمكنهم من أداء واجبهم بإتقان فتبقى لهم الشهادة على العالمين .

وقد وردت أحاديث أخرى فى فضل هذه الحراسة غير هذا الحديث، منها حديث فضالة بن عبيد مرفوعًا : « كل ميِّت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمَّن فتنة القبر » (١).

وحديث أبى هريرة مرفوعًا : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط » (٢).

وحديث سهل بن سعد مرفوعًا : « رباط يوم فى سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها » (٣).

وحديث سلمان مرفوعًا : « رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأُجرىَ عليه رزقه، وأمِنَ الفتَّان » (٤).

(١، ٢، ٣، ٤)هذه الأحاديث الأربعة سبق تخريجها فى : الجزء الثانى : الحديث الخامس والعشرين .

وحديث أبى هريرة مرفوعًا : « مَن مات مرابطًا فى سبيل الله أجْرِىَ عليه أجْرَ عمله الصالح الذى يعمل ، وأجْرَى عليه رزقه، وأمِنَ من الفتَّان، وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع » (١) .

وحديث أنس ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أجر الرباط فقال : « مَنْ رابط ليلةً حارسًا مِنْ وراء المسلمين كان له أجر مَنْ خلفه، مِمَّنْ صام، وصلى » (٢) .

وحديث سهل بن معاذ، عن أبيه مرفوعًا، : « مَنْ حرس وراء المسلمين متطوعًا لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم » (٣) .

وحديث العرباض بن سارية، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط فى سبيل الله، فإنه يُنمَّى له عمله، ويجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة » (٤) .

وحديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا : « عينان لا تمسُّهما النار : عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس فى سبيل الله » (٥) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فضل الرباط فى سبيل الله ٢/ ٩٢٤ رقم ٢٧٦٧ وهذا لفظه، وعقَّب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة، بقوله : « إسناده صحيح، معبد بن عبد الله بن هشام ذكره ابن حبان فى : الثقات، ويونس بن عبد الأعلى ، أخرج له مسلم، وباقى رجال الإسناد على شرط البخارى ، وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب: الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٥ المنتقى] من حديث أبى هريرة، وعقَّب عليه بقوله: «رواه ابن ماجة بإسناد صحيح ، والطبرانى فى الأوسط أطول منه » .

(٢) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب: الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٦ المنتقى] من حديث أنس بهذا اللفظ ، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد » ، كما أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب فى الرباط ٥/ ٢٨٩ من رواية أنس أيضًا ، وبلفظه ، غير أنه قال : « يومًا » بدل : « الليلة » ثم عقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ٤٣٧، ٤٣٨ من طريق ابن لهيعة ، ورِشْدين كلاهما عن زياد، عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه مرفوعًا بلفظ : « من حَرَسَ من وراء المسلمين فى سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ متطوعًا لا يأخذه سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلّة القسم، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ » ، وعقَّب عليه الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب: الحرس فى سبيل الله ٥/ ٢٨٧، ٢٨٨ بقوله : « رواه أحمد، وأبو يعلى ، والطبرانى، وفى أحد إسنادى أحمد، ابن لهيعة ، وهو أحسن حالاً من رِشْدين » .

(٤) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب: الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٤ المنتقى]، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الكبير بإسنادين ، رواة أحدهما ثقات » ، وكذا قال الهيثمى فى : مجمع الزوائد : ٥/ ٢٩٠ .

(٥) الحديث سبق تخريجه فى : الجزء الثانى : الحديث الرابع والعشرين .

الجانب الثالث : معنى خشية الله والفرق بينها وبين الخوف والخشية ومظاهرها ، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل البكاء من خشية الله :

ومعنى خشية الله : خوفه الناشئ من معرفته سبحانه، ومعرفة كمال نعمته مع الشعور بالتقصير فى شكر هذه النعمة، خوفًا يؤدى إلى أن تلين الجلود والقلوب بذكر الله، والعينان بالبكاء .

والفرق بين الخشية والخوف : أن الخشية أشدُّ من الخوف، إذ هى تكون من عِظَم المخشىِّ ، وإن كان الخاشى قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا [١] .

يقول ابن القيم : [والخشية أخصّ من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، فهى خوف مقرون بمعرفة، وقال النبى ﷺ : « إنى أتقاكم لله، وأشدكم له خشية » ، فالخوف حركة، والخشية : انجماع وانقباض وسكون، فإن الذى يرى العدو والسَّيل ، ونحو ذلك ، له حالتان : إحداهما : حركة للهروب منه، وهى حالة الخوف ، والثانية : سكونه، وفراره فى مكان لا يصل إليه فيه، وهى الخشية ، ومنه : انخش الشىء ، والمضاعف، والمعتل أخوان، كتقضَّى البازى، وتقضض... فصاحب الخوف، يلتجئ إلى الهرب، والإمساك، وصاحب الخشية، يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل مَنْ لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية ، والأدواء » [٢] .

ومن المظاهر التى تعرف بها الخشية لله غير البكاء الوارد فى الحديث القيام بحق الله كاملاً مع الإشفاق ألا يقبل ذلك، لقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)** ﴾ [المؤمنون] .

تقول عائشة رضى الله عنها : قلتُ : يا رسول الله ! قول الله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ**

---

[١] انظر : الكليات لأبى البقاء الكفوى ، ص ٤٢٨ .

[٢] انظر : تهذيب مدارج السالكين للأستاذ : عبد المنعم صالح، ص ٢٦٩، ٢٧٠ .

وَجِلَةٌ ﴾ ، أو هو الذى يزنى ، ويشرب الخمر، ويسرق ؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ، ويصلى ، ويتصدق ، ويخاف ألا يُقبَل ذلك منه » (١) .

وقال الحسن : « عملوا لله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردّ عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا » (٢) .

وقد جاءت نصوصٌ أخرى غير حديث الباب فى فضيلة البكاء من خشية الله، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) ﴾ [المائدة] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] .

وقوله ﷺ : « مَنْ ذكر الله، ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله تعالى إلى يوم القيامة » (٣) .

وقوله ﷺ : « ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين، وأثرين : قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تراق فى سبيل الله، وأمَّا الأثران : فأثرٌ فى سبيل الله، وأثرٌ فى فريضة من فرائض الله ـ عز وجل » (٤) .

وقوله ﷺ : « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » (٥) .

وإنما كان البكاء من خشية الله موجبًا لصاحبه النجاة من النار فلا تمسُّه النار أبدًا ، لاسيما هذه العين الباكية؛ لأنه صار علامة على الاعتراف لله بكامل الربوبية والألوهية، واتهام النَّفْس بالتقصير، والتفريط فى جنب الله، فأشبه ذلك ما قاله يونس وهو فى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب التفسير : ومن سورة المؤمنون ٥/٣٠٦، ٣٠٧ رقم ٣١٧٥، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : التوقى على العمل ٢/١٤٠٤ رقم ٤١٩٨، وأحمد فى : المسند ٦/١٥٩، ٢٠٥ كلهم من حديث عائشة مرفوعًا ، واللفظ لابن ماجة وأحمد .

(٢) انظر : تهذيب مدارج السالكين ، ص ٢٦٩ .

(٣، ٤، ٥) هذه الأحاديث الثلاثة سبق تخريجها فى : الجزء الثانى : الحديث الرابع والعشرين .

بطن الحوت : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] .

كما أشبه التوبة النصوح الواردة فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم] .

والتوبة النصوح لا جزاء لها ـ كما نعلم ـ إلا تكفير الذنوب، بل تبديلها بالحسنات، إذ يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ [الفرقان] .

الجانب الرابع : معنى كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل كفِّ الطرف عن محارم الله :

ومعنى كفِّ العين عن محارم الله : منع هذه العين من النظر إلى ما حرَّمه الله عليها، فلم تتطلع أو تنظر إلى شىء من ذلك امتثالاً لأمر الله، وجاء فى رواية أخرى : « وعين غَضَّت عن محارم الله »، أى : خفضتْ، وأطرقتْ [١] ، والمعنى واحد، ولهذا الكفُّ أو لهذا الغض صور، منها :

١ ـ منع العين، من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من المحارم إلا لضرورة من تطبيب، أو إنقاذ، ونحوهما .

٢ ـ منع العين كذلك من النظر إلى نعمة الغير مِمَّن هو أهل لها من المؤمنين نظرة حقد، وحسد .

٣ ـ ومنع العين من النظر أو التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا تطلعًا يجعل لها سيطرة أو سلطانًا على القلب .

قال تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر] .

---

(١) انظر : فيض القدير للمناوى ٣/ ٣٢٣ بتصرف .

قال ابن عباس : [﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ نهى الرجل أن يتمنَّى ما لصاحبه] ، وقال مجاهد : [﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ ، هم الأغنياء] (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [طه] .

وعن عمر بن الخطاب : أنه دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهنَّ فرآه متوسِّدًا ، مضطجعًا على رمال حصير ، وليس فى البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ واهية (٢) معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا عمر ؟ » ، فقال : يا رسول الله ، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ، فقال : « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ ، أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » (٣) .

وفوائد كف العين عن محارم الله :

١ ـ قطع الطريق على الشيطان أن يدخل إلى القلب فيفسده .

٢ ـ أن يظل المرء مجموع الهمَّة ، حاضر العقل والفؤاد ، منتبه الأعصاب .

٣ ـ سلامة القلب ، وسكينة وطمأنينة النفس ، بحيث يجد المرء لذَّةً أو حلاوةً للإيمان .

٤ ـ عدم التعلق بالحياة الدنيا ، والركون إليها ، والاطمئنان بها .

وقد جاءت نصوص كثيرة فى فضيلة الكف عن محارم الله غير ما ورد فى الحديث ، منها قوله سبحانه : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ

---

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣١٨ .

(٢) الصبرة هى : ما جُمع من الطعام بلا كيل ووزن ، وهى الطعام المنخول ، وهى الحجارة الغليظة المجتمعة [القاموس ٢/٩٥ مادة : صبر] .

والقرظ : ورق شجر شائك اسمه : « السلم » يستعمل فى دبغ الجلود [انظر : القاموس ٢/٥٨٦ مادة : قَرَظَ] .

ومراد عمر رضي الله عنه أن بيته ﷺ كان خاويًا ليس فيه شىء سوى وعاء واهٍ معلق به هذه الأوراق التى تدبغ بها الجلود ، وهو رسول الله ﷺ وأكرم الخلق على الله ، بينما بيوت كسرى وقيصر تكاد تغص بالحرير ، والنعيم ، وهما أبغض الخلق إلى الله .

(٣) الحديث أورده ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٩٩ [مختصر تفسير ابن كثير] ، قائلاً : « وفى الصحيح » ، وساقه ، وأصله فى : صحيح البخارى .

أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ [النور] .

وقوله ﷺ : « إياكم، والجلوس فى الطرقات » ، قالوا : يا رسول الله ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نقعد فيها، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غضُّ البصر، وكف الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (١) .

وقوله أيضًا : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه » (٢) .

وعن أبى أمامة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ، ثم يغضُّ بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

وعن أبى هريرة ﷺ مرفوعًا : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضَّتْ عن محارم الله ، وعينًا سَهَرَت فى سبيل الله، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله ـ عز وجل » (٤) .

أما غض البصر خاصة فله فوائد، نذكر منها :

١ ـ قوة الإيمان وحلاوته، كما نطقت بذلك الأحاديث المذكورة آنفًا .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب: أفنية الدور، والجلوس فيها، والجلوس على الصعدات، ص ٣٩٧، رقم ٢٤٦٥، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب، ص ٦٨١ رقم ٤٨١٥، كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أورده ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٢، وعزاه للطبرانى من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمى فى : المجمع ٨/ ٦٣ وعزاه للطبرانى وعقَّب عليه بقوله : « وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٢٦٤ [ص ١٦٤٧ رقم ٢٢٦٣٤ من حديث أبى أمامة مرفوعًا بهذا اللفظ]، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب: غض البصر ٨/ ٦٣، وعزاه إلى أحمد، والطبرانى إلا أنه قال: « ينظر إلى امرأة أول وقعة »، وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك، وأورده ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٢ وعقب عليه بقوله : « ولكن فى أسانيدها ضعف، إلا أنها فى بالترغيب ومثله يتسامح فيه » .

(٤) الحديث أورده ابن تيمية فى : دقائق التفسير ٤/ ٤٤٦، ٤٤٧ وعزاه إلى ابن أبى الدنيا من حديث عمر بن محمد بن صهبان، عن صفوان بن سليم عن أبى هريرة بهذا اللفظ ، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

obeikandl.com

٢ ـ الحماية من التشتت الذهنى مع القدرة على حضور القلب وجمع الهمة إذ من يُطلق العنان لبصره يُبتلى بالتشتت الذهنى ، وعدم القدرة على حضور القلب، وجمع الهمة . . ومن يجاهد نفسه ويغض طرفه فإن الله سبحانه يمنُّ عليه بحضور القلب، وجمع الهمة مع الحماية من التشتت الذهنى .

٣ ـ التوفيق إلى مزيد من الطاعات ، وأعمال البرّ والمعروف، لحديث أبى أمامة المُخرَّج فى : المسند، المذكور قريبًا، الأمر الذى ينتهى إلى النور والفراسة .

٤ ـ النجاة من الحزن والبكاء يوم القيامة ، بل الظفر بالفرح والسرور لحديث : «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضت عن محارم الله . . . » .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله : « ولهذا يقول : إن غضَّ البصر عن الصورة التى ينهى عن النظر إليها كالمرأة، والأمرد يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها : حلاوة الإيمان، ولذته التى هى أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه . . . »[(١)] .

وأما الفائدة الثانية فى غض البصر ، فهو يورث نور القلب ، والفراسة . . وذَكَرَ الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر، فقال : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور : ٣٥] ، وكان شاه بن شجاع الكرمانى ـ سليل بيت الملك، جليس العلماء كأبى تراب النخشبىِّ، وغيره، معروف بالعلم والمجاهدة (ت قبل الثلاثمائة) ـ لا تخطئ له فراسة، وكان يقول : مَنْ عَمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة، والله يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة، والكشوف، ونحو ذلك مما يُنال ببصيرة القلب .

الفائدة الثالثة : قوة القلب، وثباته، وشجاعته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، فإن فى الأثر : « الذى يخالف هواه، يفرق الشيطان من ظله »، ولهذا يوجد فى المتبع هواه من ذُلِّ النفس ، وضعفها ، ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه ، وإن الله جعل العزَّة لمن أطاعه ، والذلَّة لمن عصاه ، قال تعالى : ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون : ٨] ،

---

(١) انظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/ ٤٦٧ط ، علوم القرآن ـ دمشق ـ بيروت ، الثالثة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران]، ولهذا كان من كلام الشيوخ : الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا فى طاعة الله، وكان الحسن البصرى يقول : إن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، فإن ذل المعصية فى رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه » (١) .

ويُعين على غض البصر ما يلى :

١ ـ استحضار مراقبة الله، واطلاعه على كل ما يقع من العبد فى سرِّه وعلانيته، وحده أو مع غيره، وأينما وجد، فإن هذا الاستحضار إن كان صادقًا سيحمل صاحبه على غض البصر، استحياءً من الله عزَّ وجلَّ .

٢ ـ استحضار الرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والوقوف بين يديه، والسؤال عن كل شىء حتى عن خائنة الأعين، ثم المجازاة بما هو من جنس العمل ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الكف عن محارم الله خوفًا مما يكون فى يوم الحساب والجزاء .

٣ ـ صحبة الأتقياء البررة المعروفين بغض أبصارهم، وحفظ فروجهم، فإن هذه الصحبة لها أعظم التأثير فى التذكير عند النسيان، والإعانة عند الذكر .

٤ ـ استحضار الثمرات المترتبة على غض البصر، فإن هذه الثمرات يمكن أن تسهم فى تقوية روح المجاهدة، وصدق العزيمة، وعلو الهمة .

٥ ـ محاسبة النفس أولاً بأول، مع الحزم الصادق فى تأديب النفس عند اكتشاف التقصير ، والخلل .

٦ ـ التجوال المستمر فى سير السَّلَف، وكيف كان اهتمامهم بغض أبصارهم، ودعوتهم المستمرة إلى ذلك، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الاقتداء، والتأسى، أو على الأقل المحاكاة والتشبه .

ما يُستفاد من الحديث دعويًا، وتربويًا :

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها :

١ ـ الحرص على المرابطة فى سبيل الله، كلٌّ بما لديه من طاقات وإمكانات لما

---

(١) انظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/٤٦٨، ٤٦٩ .

تؤدى إليه هذه المرابطة من صيانة الدماء، والأموال، والعقول، والأعراض، والدين، وبالتالى عز المجتمع وتقدمه، ورقيه، هذا فضلاً عن النجاة من النار، والظفر بجنة عرضها السموات والأرض، ورؤية الله ـ عزَّ وجلَّ .

٢ ـ مجاهدة النفس للظفر بالخوف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخشيته بصورة يكون معها البكاء، والمحافظة على حدود الله، لما يمكن أن تثمره هذه الخشية من أداء الواجبات بصدق وإتقان، ومع الحفاظ على الحرمات فتكون الحياة الطيبة فى الدنيا، والفوز والنجاة غداً برحمة من الله ورضوان .

٣ ـ ترويض النفس على أن تكف عن محارم الله لما يؤدى إليه ذلك من انتشار الأمن والأمان فى النفس، وفى واقع الحياة، والنجاة من النار، والمثوبة بجنة الله ورضوانه.

٤ ـ العمل على كف البصر عمَّا لا يحل النظر إليه كصورة من صور الكف عن محارم الله، لما لذلك من فوائد وثمرات ذُكرَت آنفًا .

٥ ـ الحرص على تذوق البلاغة النبوية التى عبَّر عنها النبىﷺ فى هذا الحديث ببيان صيانة أعين هذه الأصناف الثلاثة عن رؤية النار ، فضلاً عن التعذيب بها، وإرادة سلامة صاحبها من باب أولى من باب التعبير بالجزء، وإرادة الكل، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من النار، ويُعذب صاحبها ، حقًا إنه أوتى جوامع الكلم ، واختُصر له الكلام اختصاراً .

obeikandl.com

obeikandl.com

الحديث الثانى والثلاثون

عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله، وهم ظاهرون على الناس » .

تخريج الحديث :

الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب : من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ١/ ٢٧، ٢٨ من حديث ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن معاوية بن أبى سفيان عن النبى ﷺ وتمامه: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله »، وكتاب فرض الخمس: باب: قول الله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، يعنى للرسول قسم ذلك ، وقال رسول الله ﷺ : « إنما أنا قاسم ، وخازن، والله يعطى » ٤/ ١٠٣ من حديث عبد الله عن يونس عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن معاوية مرفوعًا بلفظ: « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، والله المعطى وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتى أمر الله، وهم ظاهرون» وكتاب المناقب: باب: منه ٤/ ٢٥٢ من حديث الحميدى، قال : حدثنا الوليد، قال حدثنى ابن جابر، قال حدثنى عمير بن هانئ، أنه سمع معاوية يقول : سمعتُ النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، قال عمير، فقال مالك بن يُخامر، قال معاذ : وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول : وهم بالشام، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم» ٩/ ١٢٥ من حديث ابن وهب، عن الزهرى، عن حميد، عن معاوية مرفوعًا: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطى، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتى أمر الله»، وكتاب التوحيد: باب : قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل: ٤٠]،

٩/ ١٦٧ من حديث الحميدى ، قال حدثنا الوليد بن مسلم، قال : حدثنا ابن جابر، قال حدثنى عمير بن هانئ، أنه سمع معاوية، قال : سمعتُ النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، ما يضرهم من كذَّبهم، ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»، فقال مالك بن يخامر : سمعتُ معاذًا يقول: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام .

وللفقرة الأخيرة من حديث معاوية شاهد عند البخارى فى: كتاب المناقب : باب: منه ٤/ ٢٥٢، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم ٩/ ١٢٥، وكتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ [النحل: ٤٠]، ٩/ ١٦٧ من حديث المغيرة ابن شعبة مرفوعًا: «لا يزال ناس من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»، وفى رواية : « لا تزال طائفة من أمتى . . » ، وفى رواية : « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمر الله » .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب : النهى عن المسألة ٢/ ٧١٨، ٧١٩ رقم ٩٨، ١٠٠، من حديث عبد الله بن عامر اليحصبى، قال سمعتُ معاوية يقول : «إياكم وأحاديث، إلا حديثًا كان فى عهد عمر، فإن عمر كان يخيف الناس فى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»، وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس، فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة، وشره، كان كالذى يأكل ولا يشبع » ، ومن حديث ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سمعتُ معاوية بن أبى سفيان ـ وهو يخطب ـ يقول : إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « مَن يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطى »، وكتاب الإمارة : باب : قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » ٣/ ١٥٢٤ رقم ١٧٤ من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانئ قال سمعت معاوية على المنبر يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تزالُ طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتى أمر الله، وهم ظاهرون على الناس » .

ورقم ١٧٥ من حديث جعفر بن برقان ، عن يزيد بن الأصمِّ ، قال : سمعتُ معاوية بن أبى سفيان ذكر حديثًا رواه عن النبى ﷺ لم أسمعه روى عن النبى ﷺ على

منبره حديثًا غيره، قال : قال رسول اللهﷺ : « من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يُقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»، وله شواهد عند مسلم رقم ١٧٠ من حديث ثوبان مرفوعًا « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتى أمر الله، وهم كذلك ».

ورقم ١٧١ من حديث المغيرة قال : سمعتُ رسول اللهﷺ يقول : « لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون »، رقم ١٧٢ من حديث جابر بن سمرة عن النبىﷺ أنه قال : « لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة » .

ورقم ١٧٣ من حديث ابن جريج عن أبى الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول اللهﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة » .

ورقم ١٧٦ من حديث عبد الرحمن بن شُماسة المهرى ، قال : كنت عند مسلمة ابن مُخلَّد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرٌّ من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشىء إلا ردَّه عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مَسلمةُ : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة : هو أعلم، وأما أنا فسمعتُ رسول اللهﷺ يقول : « لا تزالُ عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك »، فقال عبد الله : أجل، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مَسُّها مَسُّ الحرير، فلا تترك نفسًا فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قَبَضَتْهُ ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة » .

وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب : فى دوام الجهاد ٣/ ١١ رقم ٢٤٨٤ ولكن من حديث عمران بن حصين، قال : قال رسول اللهﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال »، وكتاب الفتن والملاحم : باب : ذكر الفتن ودلائلها ٤/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢ رقم ٤٢٥٢ من حديث ثوبان مرفوعًا ، وهو حديث طويل آخره : « ولا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب: ما جاء فى الشام ٤/ ٤٢٠ رقم ٢١٩٢

من حديث معاوية بن قرَّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، لا تزال طائفة من أمتى منصورين ، لا يضرهم من خذلهم حتى الساعة»، وعقَّب عليه بقوله : « قال محمد بن إسماعيل : قال على بن المدينى : هم أصحاب الحديث » ، كما عقَّب عليه بقوله : « وفى الباب : عن عبد الله بن حَوَالة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح »، وباب: ما جاء فى الأئمة المضلين من حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلِّين، قال : وقال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله» ٤/ ٤٣٧، ٤٣٨ رقم ٢٢٢٩، وعقَّب عليه بقوله: « وهذا حديث حسن صحيح، سمعتُ محمد بن إسماعيل يقول : سمعتُ على بن المدينى يقول : وذكر هذا الحديث عن النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق »، فقال على : « هم أهل الحديث »، وكتاب العلم : باب : إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين ٥/ ٢٨ رقم ٢٦٤٥ من حديث ابن عباس ، وعقَّب عليه بقوله : « وفى الباب : عن عمر، وأبى هريرة ، ومعاوية : هذا حديث صحيح » .

والنسائى فى : السنن : كتاب الخيل : باب : ذكر الخيل [٣/ ٣٥ رقم ٤٤٠١/ الكبرى] من حديث جبير بن نفير، عن سلمة بن نفيل الكندى قال : كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ، فقال رجل يا رسول الله : أذال الناسُ الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا: الاجتهاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه، فقال : «كذبوا الآن، جاء القتال، ولا يزال من أمتى أمةٌ يقاتلون على الحق، ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منه حتى تقوم الساعة ، حتى يأتى وعد الله . . . الحديث » .

وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ٨٠ رقم ٢٢٠ عن بكر بن خلف أبى بشير ، عن عبد الأعلى ، عن معمر، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » ، وعقَّب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة من زوائد ابن ماجة ١/ ٣٠ بقوله : « هذا إسناد ظاهر الصحة ولكن اختلف فيه على الزهرى ، فرواه النسائى من حديث شعيب عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة، وقال الصواب : رواية الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن معاوية كما فى الصحيحين » .

ورقم ٢٢١ من حديث هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس ، أنه حدَّثه قال : سمعتُ معاوية بن أبى سفيان يحدث عن رسول اللهﷺ أنه قال : « الخير عادة ، والشر لجاجة، ومن يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » ، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ١/ ٣٠ بقوله : « رواه ابن حبان فى صحيحه، عن طريق هشام بن عمّار، فذكره بإسناده ومتنه سواء . . . » .

والدارمى فى : السنن : المقدمة : باب : الاقتداء بالعلماء ١/ ٧٣، ٧٤ من حديث معاوية ، وابن عباس مرفوعًا بلفظ : « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » ، وكتاب الرقاق : باب : من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ٢/ ٣٩٧ من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظه المذكور آنفًا فى : المقدمة .

ومالك فى: الموطأ : كتاب القدر : باب : جامع ما جاء فى أهل القدر ٢/ ٩٠٠، ٩٠١ رقم ٨ من حديث يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى قال : قال معاوية ابن أبى سفيان ـ وهو على المنبر : « أيها الناس ، إنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطى لما منع الله، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ ، من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » ، ثم قال معاوية : « سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول اللهﷺ على هذه الأعواد » ، وعقّب عليه ابن عبد البرِّ فى : التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ٢٣/ ٧٨، ٧٩ بقوله : « وهذا حديث مسند صحيح، وإن كان ظاهره فى هذا الإسناد الانقطاع، وقد سمع ذلك محمد بن كعب من معاوية ، ذكر ذلك بعض رواة مالك، عن مالك وهو محفوظ أيضًا من غير طريق مالك »، بل لقد بيَّن أن له طريقًا أخرى غير طريق مالك، عن يزيد بن زياد هذا إلى محمد بن كعب القرظى ، قائلاً : « وقد سمع هذا الحديث ابن عجلان من محمد بن كعب القرظى، قائلاً : « وقد سمع هذا الحديث ابن عجلان من محمد بن كعب القرظى »، ثم ساق هذا الطريق فقال : « حدثنا عبد الوارث بن سفيان، فقال : حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا بكر بن حماد، قال: حدثنا مسدد، قال : حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، قال : سمعتُ محمد بن كعب القرظى قال : كان معاوية يخطب بالمدينة، يقول : تعلمنَّ أيها الناس أنه لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطى لما منع، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ ، من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، سمعتُ هذه الأحرف من رسول اللهﷺ على هذه الأعواد » ، وعقَّب عليها بقوله : «لم تختلف الرواية ـ والله أعلم ـ فى هذا الحديث عن محمد بن كعب ، عن معاوية أنه سمع هذا الحديث من رسول اللهﷺ وهى رواية أهل المدينة ، وأما أهل العراق ،

فيروون أن المغيرة بن شعبة كتب بهذا الحديث إلى معاوية، فالله أعلم، وقد يجوز أن يكون قوله: [من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين] سمعه معاوية من رسول الله ﷺ فأشار إليه ؛ لأن ذلك ليس فى حديث المغيرة ، وسائره فى حديث المغيرة ، وعلى هذا التخريج تصح الأحاديث فى ذلك ، لأنها منقولة بأسانيد صحاح، والحمد لله » .

وأحمد فى : المسند ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، والطحاوى فى مشكل الآثار ٢/ ٢٧٩، والطبرانى فى : المعجم الكبير ١٩/ ٨١٥ ، والقضاعى فى : مسند الشهاب، ص ٩٥٤ من طرق عن سعد بن إبراهيم ، عن معبد الجهنى عن معاوية مرفوعًا به ، وزيادة : « . . . وإن هذا المال خضر حلو، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتمادح فإنه الذبح » إلا الجملة الأولى من هذه الزيادة فليست عند القضاعى ، وهذا الإسناد رجاله ثقات غير معبد بن خالد الجهنى ، فإنه : [صدوق مبتدع] أول من أظهر القدر بالبصرة ، انظر : تقريب التهذيب ، ص ٩٥٧ ، رقم ٦٨٢٥ فيكون هذا الحديث حسن الإسناد .

وأحمد فى : المسند ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٦ والدارمى فى : السنن ١/ ٧٤، والطبرانى فى : المعجم الكبير ١٩/ ٨٦٠ ، وأبو نعيم فى : حلية الأولياء ٥/ ١٤٦، ١٤٧، والخطيب البغدادى فى : الفقيه والمتفقه ١/ ٦، والطحاوى فى : مشكل الآثار ٢/ ٢٨٠ من طريق عبد الله بن محيريز، عن معاوية مرفوعًا بلفظ : « إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين » ، وهذا إسناد رجاله ثقات فهو صحيح .

ويظهر من هذا التخريج : أن الحديث مخرَّج فى الصحاح ، والمسانيد والسنن، والأجزاء ونحوها، وأنه متعدد المخارج عن معاوية ، وأبى هريرة وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله ، وعقبة بن عامر، وعمران بن حصين، وثوبان، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وغيرهم، وأن الأمة تلقته بالقبول فيكون متواترًا تواترًا معنويًا .

المعنى العام للحديث :

الأمانة التى حُمِّلناها ـ نحن المسلمين ـ إنما هى الشهادة على العالمين ، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...** ﴾ [الحج: ٧٨].

وتلك أمانة ضخمة وعظيمة ، إذ هى تعنى أن نكون أسوة وقدوة فى أعين العالمين: نعمر الأرض حتى نسود فيها، وننزل على حكم ربنا فى كل ما نأتى، وفى كل ما ندع، ثم نُبلّغ كلمة الله إلى عباد الله بكل ما يُمكن من أساليب ووسائل شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف ، مصداقًا لقوله سبحانه : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...** ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ونقف بحزم وقوة فى وجه الكفَّار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا لئلا يكون هناك ضغطٌ أو إكراه لواحد من الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فإذا ما أُضيفَ إلى ذلك طول الطريق مع كثرة العقبات والمعوِّقات : من النَّفْس الأمَّارة بالسوء ، ومن شيطان الجنِّ القاعد لنا بكل طريق، ومن شياطين الإنس الذين هم أعوان شيطان الجن ، ومن الدنيا ببريقها ، وزخارفها ، وزيناتها ، وشدائدها ومصائبها ، وامتحاناتها ، إذا ما أضيف إلى هذه الأمانة ذلك كله ظهر أننا بحاجة ماسَّة إلى ما يُثبِّتُ أقدامنا على الطريق، ويُذهب عنّا وعثاء السفر ، ولا شك أن هناك عوامل كثيرة تساعد على ذلك :

بَيْدَ أن أهمَّها وأبرزها الثقة النفسية بالفوز والنجاح فى أداء هذه الأمانة ، والوصول بها إلى برِّ السلامة وشاطئ الأمان، والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن : وعدٌ أكيدٌ من الله لهذه الأمة بهذا الفوز ، وذلك النجاح أجراه سبحانه على لسان نبيه المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، الأمر الذى يزرع الثقة فى النفوس ، فتثبت على الطريق، وتتجاوز العقبات والمعوِّقات .

ومن عجب أن النبى ﷺ دلَّ ـ وهو يحكى هذا الوعد ـ على ما يكون سببًا فى تحقيقه ، والظفر به فى دنيا الناس ، ألا وهو الفقه فى الدين ، إذ قال : « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتى أمر الله ، وهم على الحق ظاهرين » ، وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر ، فإننا سنتناوله من هذه الجوانب :

الجانب الأول : معانى المفردات والجُمل :

قوله : « من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » :

الفقه لغة : يختلف المراد به تبعًا لماضيه ، فإذا كان ماضيه بكسر العين ، فالمراد به الفهم، تقول : فَقِهَ المسألة يفقهها فِقْها : فهمها ، وإذا كان ماضيه بالفتح فالمراد به سبق الغير إلى الفهم، تقول : فَقَهَ المسألة : يفقهها فقهًا : سبق غيره إلى فهمها ، وإذا كان ماضيه بضم العين ، فالمراد به : السجيَّة أو الـمَلَكة ، تقول : فَقُهَ المسألة يفقهها فقهًا إذا صار هذا الفقه سجيَّة له ومَلَكَة [١] ، ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا ، إذ الفقه مراتب ، فأدنى هذه المراتب : مجرد الفهم ، ولو بعد حين ، وأوسطها سبق الغير ، وأعلاها أن يصبح سجيَّة ومَلَكة .

الفقه اصطلاحًا : عند الفقهاء : العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسبة ، من الأدلة التفصيلية لتلك الأحكام ، فيشمل هذا التعريف : العلم بأحكام العبادات المخصوصة من : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والجنائز ، بالإضافة إلى أحكام النظم والتشريعات من : الزواج ، والطلاق، والنفقة، والحضانة، والعدَّة، والميراث، والمعاملات المالية: كالبيع، والسَّلَم، والرهن، والإجارة، والمضاربة، ونحوها، وأحكام الدماء، والحدود، والجهاد، والاسترقاق، وغيرها، وخرج ما يتصل بالعقائد، وكذلك ما يتصل بالآداب والأخلاق .

الفقه اصطلاحًا عند الأصوليين : يطلق الفقه عند الأصوليين على ثلاثة معان هى:

١ ـ معرفة كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى : عقيدة، وعبادة مخصوصة وأخلاقًا، ونظمًا، وتشريعات، وهذا المعنى مرادف للفظ « الشرع »، ويتناول ما عرف بعد ذلك باسم علم العقيدة، وعلم الفقه، وعلم الأخلاق .

٢ ـ العلم بالأحكام الفرعية الشرعية المستمدة من الأدلة التفصيلية يستوى فى ذلك عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويتناول علم الفقه وعلم الأخلاق .

٣ ـ العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستمدة من الأدلة التفصيلية وكأنهم خصوا الفقه بأعمال الجوارح دون أعمال القلوب [٢] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ٤/٤١٤، ٤١٥، وفتح البارى لابن حجر ١/١٦٢، ١٦٣، والمعجم الوسيط ٢/٦٩٨ بتصرف .

(٢) انظر : الموسوعة الفقهية ١/١٢ ـ ١٤ بتصرف كثير .

والمراد بالفقه فى الحديث : المعنى الأول عند الأصوليين لتناوله كل ما جاء به الشرع الحنيف من عقائد ، وشعائر مخصوصة ، ونظم وتشريعات وأخلاق وآداب .

الدين لغة : يطلق الدين لغة على معانٍ ، منها :

١ ـ الخضوع والذل ، تقول : دان دينًا ، وديانةً : خضع وذلَّ .

٢ ـ الطاعة ، تقول : دان يدين دينًا وديانةً : أطاع .

٣ ـ الجزاء ، تقول : دان فلان فلانًا : حاسبه، وجازاه[١] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا ، إذ الدين خضوع وانقياد ، وطاعة تقتضى الحساب والجزاء .

والدين اصطلاحًا . اسم لجميع ما يعبد به الله ـ عز وجل ـ من العقائد ، والعبادات والأخلاق ، والنظم ، والتشريعات .

وقد جاء فى كتاب الله على معانٍ ، منها :

١ ـ الشريعة والحكم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ... ﴾ [النور : ٢]

٢ ـ الطاعة والانقياد ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ [النحل : ٥٢] .

٣ ـ الجزاء أو الحساب ، قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة] .

٤ ـ التوحيد ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... ﴾ [الزمر : ٣][٢] .

قوله : « وإنما أنا قاسم والله يعطى »:

قال الإمام النووى ـ رحمه الله : « معناه أن المعطى حقيقة هو الله تعالى ولستُ أنا معطيًا، وإنما أنا خازن على ما عندى، ثم أقسمُ ما أُمرتُ بقسمته على حسب ما أمرت به ، فالأمور كلها بمشيئة الله تعالى وتقديره ، والإنسان مُصَرَّف مربوب»[٣] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادى ٤/ ٣٢٠، ٣٢١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٠٦ بتصرف كثير .

(٢) انظر عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ، للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى ٢/ ٣٢ ـ ٥٤، والكليات لأبى البقاء الكفوى ، ص ٤٤٣، ٤٤٤ .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧/ ١٢٨، ١٢٩ م٤ .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله : « والمعنى لا أتصرف فيكم بعطية ولا منع برأيى » بدليل رواية : « إنما أنا القاسم أضع حيث أمرتُ » أى لا أعطى أحدًا ولا أمنع أحدًا إلا بأمر الله » (١) .

وقال فى موضع آخر : « فيه إثبات الخير لمن تفقه فى دين الله، وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به . . . » (٢) .

وقال المناوى ـ رحمه الله : « إن إثبات الخير للمتفقه لا يكون بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح الله عليه به على يد المصطفى ﷺ ثم ورثته » (٣) .

والمقسَمُ أو المعطىَ محذوف فهل يراد به المال، كما فسرته إحدى روايات مسلم ولفظها : « إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة، وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع »، وكأنَّ المعنى أنا خازن المال، وأسوِّى بينكم فى العطاء، والبركة أو عدمها عطاء من الله تبعًا للقناعة والرضا، وكذلك التكالب والشَّره .

أم يراد به الفقه فى الدين ؟ وله :

١ ـ جانب كسبى يبذل العبد فيه جهده قدر المستطاع، وهو المشار إليه بقوله ﷺ : «إنما أنا خازن ، وقاسم » ، يعنى : جعلنى الله وعاءً لوحيه المنزّل ، ومبينًا .

٢ ـ جانب وهبى يمنحه الله العبد كثمرة للجانب الكسبى .

وقد جاءت رواية النسائى عن سلمة بن نفيل الكندى متضمنة صورة من صور الفقه فى الدين بجانبه الكسبى والوهبى، إذ يقول : كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال رجل : يا رسول الله : أذال الناسُ الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا : الاجتهادُ قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه، فقال : « كذبوا، الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتى أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منه حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتى وعد الله . . . » الحديث .

فقد اجتهد نفرٌ من أصحاب النبى ﷺ بعد الهجرة أنه انتهت الحرب، وعليهم أن يضعوا السلاح وأن يتفرغوا لمعاشهم، وهنا أقبل عليهم رسول الله ﷺ مبيِّنًا لهم خطأ

---

(١) انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٦/ ٢١٨ .

(٢) انظر : فتح البارى ١/ ١٦٢ .

(٣) انظر : فيض القدير ٦/ ٢٤٢ .

اجتهادهم من أنه ليس معنى قيام الدولة انتهاء الجهاد بل بدايته، لأن الأعداء لا يرضيهم أبدًا قيام دولة الإسلام وسيحاربونها بكل ما يستطيعون، وعليهم أن يستمروا فى الجهاد، ولئن قعدوا وتركوا فهناك طائفة من هذه الأمة يقاتلون على الحق والله يلقى بهم الرعب فى قلوب الأعداء ، ويرزقهم الأجر والمغانم وإن ظلوا أحياء، والجنة والرضوان إن ماتوا شهداء، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** (٧٤) ﴾ [النساء]، وقوله ﷺ : « تكفَّل الله لمن جاهد فى سبيله، لا يخرجه من بيته إلا جهاد فى سبيله، وتصديق كلمته بأن يُدخله الجنة، أو يُرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » (١) ، وسيبقى الأمر كذلك إلى قيام الساعة ، أو ذهاب أهل الخير ، وبقاء شرار الخلق الذين عليهم تقوم الساعة .

قوله : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ... »، وفى رواية : « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ... » .

« الطائفة » : جماعة من الناس يجمعهم مذهب، أو رأى يمتازون به (٢) .

و(الأمة) : تطلق على معانٍ كثيرة، منها :

١ ـ المرء الجامع لخصال الخير، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (١٢٠) ﴾ [النحل] .

٢ ـ الدين والملة، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

٣ ـ الحين والزمان، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ [يوسف : ٤٥] (٣) .

٤ ـ كل جماعة يجمعها أمر أو دين ، أو زمان ، أو مكان واحد ، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا (٤) ، فيقال : أمة الطير، وأمة الجن، وأمة الإنس، وأمة العرب، وأمة العجم، وأمة الدعوة، وأمة الإجابة . . . ونحوها .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى ص ٣٢٧، ٣٢٨ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٥٧١ .

(٣) انظر : الكليات لأبى البقاء الكفوى ، ص ١٨١، ١٨٢، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧ بتصرف .

(٤) انظر : الكليات ، ص ١٧٦، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧ بتصرف .

ولعل هذا المعنى الأخير هو المراد فى الحديث، يعنى سيظل جماعة من هذه الأمة قائمين بأمر الله غير مبالين بالمخالف والمعارض، والمناوئ إلى أن يقض الله أمرًا كان مفعولا .

قوله : « قائمة بأمر الله » :

يعنى مستمسكة بدين الله، ناشرة له، مجاهدة فى سبيله، حاميةً له من كيد الكائدين، وعبث العابثين، إذ الأمر هنا معناه : الدين .

قال تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٤٨] .

ويؤكد ذلك رواية جابر بن سمرة عند مسلم ـ وقد مرَّت فى تخريج الحديث ـ أن النبى ﷺ قال : « ولن يبرح هذا الدين قائمًا ، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » .

قوله : « حتى يأتى أمر الله » :

المراد بأمر الله هنا : حكمه ، وقضاؤه ، قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ... ﴾ [الأعراف : ٥٤]، وإنما يكون ذلك عندما يرسل الله ريحًا طيبة تكون سببًا فى قبض أرواح المؤمنين، ويومها لا يبقى سوى الكافرين أو شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، كان المعنى : حتى يأتى أمر الله قرب قيام الساعة ، وقد جاء هذا مفسرًا فى رواية عبد الرحمن بن شماسة المَهْرى عند مسلم ـ وقد تقدَّمَتْ ـ قال : كنتُ عند مسلمة بن مخلد ـ وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص ـ فقال عبد الله : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شرٌ من أهل الجاهلية ، لا يدعون الله بشىء إلا ردَّه عليهم » ، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة : هو أعلم ، وأما أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » ، فقال عبد الله : « أجل ، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك، مسُّها مسُّ الحرير، فلا تترك نفسًا فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة » .

وجاء مفسرًا أكثر فى رواية عمران بن حصين عند أبى داود ـ وقد مضت ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » .

وبذلك يُدفَعُ ما أشكل به بعضُ الناس على هذا الحديث من قولهم : كيف تظل هذه الفتنة قائمة بأمر الله إلى قيام الساعة مع أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخق ؟

الجانب الثانى : فوائد الفقه فى الدين وثمراته كما وردت فى الحديث :

للفقه فى الدين فوائد كثيرة وثمرات جمَّة نذكر منها :

١ ـ أنه طريق لمعرفة الله حق المعرفة، وما له وحده على عباده من العبادة المتمثلة فى التوحيد والطاعة والالتزام، والخشية والخوف والرجاء .

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ... ﴾ [آل عمران : ١٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

٢ ـ أنه طريقٌ لمعرفة حكم الله لاسيما فى الغامض من المسائل، وكذلك فى المسائل الطارئة فيبقى دين الله مواكبًا لكل الظروف والأزمنة والبيئات .

قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل : ٤٣، والأنبياء : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴾ [النساء : ٨٣] .

٣ ـ أنه طريق لتمييز الأصيل فى منهج الله من الدخيل عليه ، بحيث يعمل بالأصيل ويستمسك به، ويهمل الدخيل ولا يُعبأ به .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾ [القصص] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] ، ذلك أنهم عرفوا قيمته فاستمسكوا به .

٤ ـ أنه يكون سببًا فى رفعة صاحبه وعلو منزلته .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... ﴾ [المجادلة : ١١]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ... ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »(١) .

يقول أبو حامد الغزالى معلقًا ، ومعقِّبا : « ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة »(٢) .

٥ ـ أن يكون سببًا فى ترتيب الأمور ، ورعاية الأولويات ، بحيث لا يضيع مجمع عليه من أجل مختلف فيه، أو يضيع فرض من أجل سنة، أو يُرتكب محظور فى سبيل مباح، أو يُهمل أصل من أجل أمر ثانوى وهكذا .

---

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب : الحث على طلب العلم ٥٧/٤، ٥٨ رقم ٣٦٤١، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ٤٧/٥، ٤٨ رقم ٢٦٨٢، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ رقم ٢٢٣، والدارمى فى : السنن : المقدمة : باب: فى فضل العلم والعالم ٩٨/١، وأحمد فى : المسند ١٩٦/٥ كلهم من حديث كثير بن قيس قال : كنتُ جالسًا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق فجاءه رجل ، فقال : يا أبا الدرداء ، إنى جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغنى أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ ، ما جئتُ لحاجة، قال : فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » ، وعقّب الترمذى بقوله : « ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وهو ليس عندى بمتصل هكذا : حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد ، وإنما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة ، عن الوليد بن جميل ، عن كثير بن قيس ، عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح » ، وقد روى أبو داود ، وابن ماجة الحديث على هذا النحو الذى رضى الترمذى ، غير أنهما قالا : « داود بن جميل » بدل : « الوليد بن جميل » وهو ـ أى : « داود » أو « الوليد » ـ كما قال ابن حجر فى تقريب التهذيب ، ص ٣٠٥ رقم ١٧٨٨ : «ضعيف» .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٥/١ .

ولعل فى حديث جريج ما يشرح ذلك، إذ فيه : « أنه كان يصلى فى صومعته، وكانت أمه تأتيه، فتناديه فيشرف عليها فيكلمها، فأتته يومًا وهو فى صلاته، فنادته، قالتْ: أى جريج، أشرف علىَّ أكلمُك أنا أمك، فقال : أجيبها، أو أصلى ؟ » .

وفى رواية أنه قال : « يا رب أمى وصلاتى، فاختار صلاته، فرجعت، ثم أتته فصادفته يصلى، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمنى، فقال مثله، فدعتْ عليه قائلة : اللهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات » (١) .

وجاء فى حديث يزيد بن حوشب، عن أبيه رفعه : « لو كان جريج عالمًا لعلم أن إجابة أمه أولى من صلاته » (٢) .

قال الحافظ ابن حجر : « وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدئ بأهمهما » (٣) .

٦ ـ وأنه يكون سببًا فى اقتلاع جذور اليأس والقنوط من نفوس العصاة والمذنبين ، بل زرع الأمل والثقة فى هذه النفوس .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا ثم خرج يسأل، فأُتى راهبًا فسأله، فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل : ائت قرية كذا، وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقرَّبى، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى، وقال : قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له » (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح، كتاب الصلاة: باب : إذا دَعَتْ الأم ولدها فى الصلاة ٤/١٢٧ [فتح البارى] : وكتاب المظالم : باب : إذا هدم حائطًا فليبْن مثله ٣/١٧٩، وكتاب الأنبياء: باب : قول الله : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ٤/٢٠١، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة ، والآداب : باب : تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ٤/١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ رقم ٧/٢٥٥٠ ، ٨ ، وأحمد فى المسند ٢/٣٠٨، ٢٨٥، ٤٣٣، ٤٣٤، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

(٢) أورده ابن حجر فى : فتح البارى ٤/١٢٨، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وغيره، وعقّب عليه بقوله : «ويزيد هذا مجهول » .

(٣) انظر : فتح البارى ٨/٣١٦ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب : منه ٤/٢١١، ٢١٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٤/٢١١٨، ٢١١٩ رقم ٢٧٦٦/٤٦، ٤٧، ٤٨، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الديات : باب : هل لقاتل مؤمن توبة ٢/٨٧٥ رقم ٢٦٢٢، وأحمد فى : المسند ٣/ ٢٠ كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى .

قال ابن حجر : « وفيه فضل العالم على العابد ؛ لأن الذى أفتاه أولا بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثانى فغلب عليه العلم، فأفتاه بالصواب، ودله على طريق النجاة»(١) .

٧ ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة ثمار الطاعة والاستقامة فى الدنيا والآخرة . وكذلك معرفة عواقب المعصية والانحراف فى الدنيا والآخرة، فيكون الحرص على الطاعة والاستقامة، ويكون الفرار من المعصية والبعد عن الانحراف .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [الأنعام : ١٥، والزمر : ١٣] .

٨ ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة قيمة الوحى المنزل من عند الله ، وسبيل التعامل معه .

قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ [سبأ] ، وقال تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج].

٩ ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة العوالم والمخلوقات الأخرى التى تعيش معنا ، ولا نراها، وكيفية التعامل مع هذه العوالم، والمخلوقات .

قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن]، وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الأعراف] .

١٠ ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة العاقبة والمصير بحيث يأخذ المرء أهبته واستعداده .

قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

---

(١) انظر : فتح البارى ، لابن حجر ٨/ ٣٧١ .

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ [التوبة] .

١١ ـ أنه يكون سببًا فى معرفة التعامل مع ما قضى الله للعبد من خير أو شر .

قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾ [الحديد] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن] .

وقال ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خيرٌ ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ـ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرَّاء صبرَ ، فكان خيرًا له» .

١٢ ـ أنه يكون سببًا فى معرفة مكايد الشيطان وسبيل التعامل مع هذه المكايد .

روى البيهقى بسنده إلى حاطب بن أبى بلتعة، قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال : فحييته بكتاب رسول الله ﷺ ، فأنزلنى فى منزله، وأقمتُ عنده، ثم بعث إلىَّ وقد جمع بطارقته، فقال : إنى سأكلمك بكلام، وأحب أن تفهمه منِّى ، قال : قلتُ هلمَّ ، قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبيٌّ ؟ قلتُ : بلى هو رسول الله ﷺ ، قال : فما له حيثُ كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ قال : فقلتُ : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ﷺ فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يغلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى رفعه الله إليه فى السماء الدنيا ؟ قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم . . . الحديث » .

الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب : المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩/ ٦٤، وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣ .
انظر : دلائل النبوة ٤/ ٣٩٦.

١٣ ـ وأنه يكون سببًا فى معرفة أنجح أساليب الدعوة إلى الله وأفعلها بحيث تقام الحجة على المعاندين والمصرين، ويستقطب المتَّقون .

قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾ [الأعراف] .

١٤ ـ وأنه يكشف لصاحبه أفضل العبادة فيكون الحرص على هذا الأفضل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران] .

١٥ ـ وأنه يكون سببًا فى نيل الأجر والثواب ، وبالتالى الحياة الطيبة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

قال ﷺ : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا ، أو يُعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته » (١) .

وقال أيضًا : « من طلب علمًا فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علمًا فلم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر » (٢) .

وقال ﷺ كذلك : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض، حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . . . » الحديث (٣) .

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب العلم : باب : الترغيب فى الرحلة فى طلب العلم ١/ ١٤٠ من حديث أبى أمامة مرفوعًا، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به»، كما أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ١/ ١٢٢، ١٢٣ قائلاً : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله موثقون » .

(٢) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ١/ ٩٦، والهيثمى فى : مجمع الزوائد ١/ ١٢٣ كلاهما من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا، وعقَّبا عليه بقولهما : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب : الحث على طلب العلم ٢/ ٢٨٥، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ٥/ ٤٨، ٤٩ رقم ٢٦٨٢، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء ١/ ٨١ رقم ٢٢٣، وأحمد فى : المسند ٥/ ١٩٦ كلهم من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، ونحوه .

وباختصار هو الطريق لإيجاد الطائفة التى ذكرتْ فى الحديث آنفًا : « ولن تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم على الحق ظاهرون » .

الجانب الثالث : منزلة الفقه فى الدين من الإسلام كما فى الحديث :

وللفقه فى الدين منزلة رفيعة من الإسلام، حسبنا أنه مأمور به صراحة وضمنًا بطريق غير مباشر وغير مباشر .

فمن الأوامر الدالة على ذلك صراحة وبطريق مباشر : قوله ﷺ : « اغد عالمًا أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو محبا، ولا تكن الخامسة فتهلك » [١] .

إذ هذا أمرٌ صريحٌ مباشر، والأمر عند إطلاقه يفيد معنى الوجوب ما لم تكن هناك قرينة تصرفه عن الوجوب إلى غيره، ولا قرينة هنا . . .

ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)**﴾ [العلق] ، وقال تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)** ﴾ [طه] .

فإن هذا أمرٌ صريح غير مباشر ؛ لأنه فى الظاهر خطاب للنبى ﷺ وحقيقة الحال أنه خطابٌ لنا، إذ خطابه ﷺ خطابٌ لأمته، ما لم تكن هناك قرينة تقول إن هذا من خصوصياته ﷺ، ولا قرينة هنا .

ومن ذلك قال تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . . .** ﴾ [المجادلة : ١١]، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩)** ﴾ [الزمر] .

وقال ﷺ : « من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين . . . » الحديث [٢] ، « إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين، وألهمه رشده» [٣] ، «الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [٤] ، « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة . . . » [٥] ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى جاءت بلفظ

الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ١/ ١٢٢ من حديث أبى بكرة مرفوعًا وعقَّب عليه بقوله : «رواه الطبرانى فى الثلاثة ـ أى : فى معاجمه الثلاثة ـ والبزار ورجاله موثقون » .

هذه الأحاديث سبق تخريجها .

الخير غير أن المراد بها الأمر تطبيقًا للقاعدة الأصولية المعروفة من أن : « كل فعل كسبى عظَّمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به أو أو حبَّه فاعله . . .إلخ فهو مأمورٌ به »[١] .

كأنه قال هنا : « كونوا من المؤمنين وممن أوتوا العلم حتى تُرفَعُوا درجات » ، و«كونوا ممن يعلمون لئلا تتساووا بمن يجهلون » ، و« تفقهوا فى الدين ولو كنتم من خيار الناس فى الجاهلية، فإن الفقه فى الدين يجعلكم خيارًا فى الإسلام » ، و« اسلكوا الطرق إلى العلم ليسهل الله لكم بهذا العلم طريقًا إلى الجنة » ، وهلم جرا .

وهكذا تتضاف الأدلة على وجوب الفقه فى الدين، والسؤال هو : هل هذا الفقه عينىّ يعنى على كل واحد أن يلزمه وأن يتحلى به، أم كفائى يعنى إذا قام به البعض سقط الإثم أو الحرج عن الباقين ؟

وظاهر الحال ، وأيضًا فقه المسلمين الأوائل لهذه المسألة : أن منه ما هو عينى ومنه ما هو كفائى .

أما العينى فما يتصل بالعقيدة من الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر، وكذلك ما يتصل بالعبادات المخصوصة من الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والعمرة، والمعاملات المالية، وشؤون الأسرة من الزواج والطلاق، والنفقة والحضانة، والعدة، والإرث، وحماية الدماء، والأعراض، والجهاد، والأخلاق حسنة، وسيئة .

والمراد بالفقه العينى لهذه القضايا : معرفتها معرفةً كلية يقينية تمكنه من الالتزام، والتنفيذ، والتطبيق على الفور، ثم يطلب الدليل لكل قضية من هذه القضايا على التراخى، وبالتدريج حتى يستوفى أدلة هذه القضايا جميعًا بصورة تحميه من تركها تحت ضغط الشدة والرخاء .

وأما الكفائى فهو التعمُّق فى معرفة قيمة الدليل صحةً، وسلامةً من التعارض وإنزالاً على الواقع، وكذلك معرفة دقائق هذه القضايا إلى حدٍّ الوصول إلى الفقه الاجتهادى فى قضية أو أكثر، وبلد أو أكثر، وربَّما إلى الفقه الاجتهادى المطلق، وبذلك يصير هذا الفقه الاجتهادى المطلق قادرًا على مواكبة كل ما يظهر من الحوادث، والوقائع، وضبطها بضوابط الشرع الحنيف .

---

[١] انظر : الإمام فى بيان أدلة الأحكام، للعز بن عبد السلام، ص ٨٧، ٨٨، ١٠٢ .

وعندئذ يمكن التوفيق بين حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [١] وبين قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة] .

يقول الحافظ أبو عمر بن عبد البرِّ : « قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيِّنٌ على كل امرئ . . . والطائفة فى لسان العرب : الواحد فما فوقه » [٢] .

الجانب الرابع : أهم أصول الفقه فى الدين وقواعده وطريق توفيق الله العبد لتحصيله :

وللفقه فى الدين أصول وقواعد يقوم عليها، وأهمُّها :

١ ـ اليقين أن الإسلام دين يشمل مظاهر الحياة جميعًا فى كل شأن من شؤونها، وكل ناحية من نواحيها، فهو عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظم وتشريعات .

٢ ـ القرآن الكريم، والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان فى التشريع الإسلامى، إما نصًا، وإما استنباطًا بشروطه الصحيحة المتعارف عليها بين العلماء .

٣ ـ اللغة العربية ضرورة لابد منها للفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

٤ ـ الاطلاع على فقه العلماء من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا، فإن الله قد منحهم نورًا وبصيرة فى الفقه لتقواهم، وتمكنهم من هذا الفقه، وبصيرتهم بواقعهم وواقع الآخرين المحيطين بهم .

٥ ـ جمع النصوص المتعلقة بأى مسألة من المسائل، ثم دراستها فى ضوء بعضها البعض، ومحاولة التوفيق بين المتعارض منها إما بالجمع، وإما بالترجيح وفق القواعد المتعارف عليها بين العلماء .

٦ ـ اختلاف العلماء فى الفقه فى غير المجمع عليه ظاهرة صحية لتفاوت العقول فى الفقه، ولتباين الأدلة من ناحية الاطلاع عليها، وعدم الاطلاع، ومن ناحية ثبوتها وعدم ثبوتها، ومن ناحية تغير جهة الدلالة، وتغير الواقع من بيئة إلى بيئة . . . ومن حال إلى حال .

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير للألبانى ٢/٧٢٧ رقم ٣٩١٤ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله ١/٥٦ ـ ٥٩ .

٧ ـ لا يصح اتخاذ الخلاف المذكور آنفًا سبيلاً للتفرق في الدين، أو الخصومة والبغضاء، ولا بأس من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجرَّ ذلك إلى المراء المذموم، والتعصب.

٨ ـ سؤال أهل الذكر عند الجهل، وتعذر الوصول إلى الحقيقة . قال تعالى : ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)**﴾ [النحل] .

الطريق إلى توفيق الله العبد للفقه في الدين وتحصيله :

وتتمثل هذه الطريق في :

١ ـ الإخلاص مع اتباع السنة أو التقوى ، فإن ذلك يكون سببًا في منح الله للعبد فرقانًا، ونورًا . قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...** ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ ...** ﴾ [الحديد : ٢٨] .

٢ ـ التواضع ورد الفضل في كل شيء إلى الله . قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)** ﴾ [النور] ، وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)** ﴾ [هود : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)** ﴾ [الإسراء] .

وقال النبي ﷺ: « من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله » [١] .

وقال الشعبي : « صلى زيدٌ بن ثابت على جنازة، فقربتْ إليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد : خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال

---

(١) الحديث أورده العراقي في : المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ٤٥/١، وعقَّب عليه بقوله : « أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح، وقال : غريب من حديث الثوري، ولابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن » .

ابن عباس : هكذا أُمِرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبَّل زيدٌ بن ثابت يده، وقال : هكذا أُمِرنا أن نفعل ببيت نبينا ﷺ » (١) .

٣ ـ الصبر والتحمل ، فإن فقه المسائل وأدلتها، وحفظها شاق وصعب على النفوس، ومواجهة ذلك إنما يكون بالصبر والتحمل وطول النفس، قال تعالى عن الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وبين العبد الصالح : ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)** ﴾ [الكهف] .

٤ ـ التمتع بقدر من الذكاء والفطنة ونعنى بذلك الجانب المكتسب لا الفطرى ؛ لأن الفطرى هبة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا مدخل لأحد فيه ، ويحصل ذلك للمرء بالتجارب والإفادة من الخطأ، وكذلك مخالطة الآخرين، والإفادة من خبراتهم، والوضع فى المسؤولية منذ نعومة الأظفار، والبعد عن المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، والتوبة منها فورًا بغير تسويف عند اقترافها، ودوام المطالعة والمذاكرة، وكثرة السؤال، وتعلم كيفية التصنيف والتأليف، وممارسة ذلك شيئًا فشيئًا حتى يقوى العود، ويشتد الساعد، إلى غير ذلك من أساليب تنمية الذكاء، والفطنة .

٥ ـ الاجتهاد والجد فى طلب العلم، وجعل ذلك الشغل الشاغل مع الحرص وعدم التفريط، قال تعالى ليحيى عليه السلام : ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ [مريم : ١٢] ، وقال تعالى عن بنى إسرائيل: ﴿ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣، والأعراف: ١٧١]، وقال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾ [الأعراف: ١٤٥].

٦ ـ ملازمة العلماء ، والتلقى عنهم لاسيما فى أوائل الطلب، والتحذير الشديد من الاعتماد على الكتب وحدها فى البداية، فإن هذا ينتهى بالطالب إلى أخطاء لا تُحمد عقباها، على أنه يشترط فيمن تجب ملازمته من العلماء أن يكون من أهل الاجتهاد والحكمة بحيث يبدأ التربية باختيار رأى واحد، حتى إذا تيقن قوة ساعد تلميذه، واشتداد عوده أطلعه على الآراء الأخرى فى غير مذهبه، وأعلمه كيف يوازن بين الأدلة فيجمع بينها، أو يرجح بعضها على بعض .

---

(١) الحديث أورده العراقى فى : المغنى ١/ ٥٠، وعقَّب عليه بقوله : « أخرجه الطبرانى والحاكم، والبيهقى فى المدخل، إلا أنهم قالوا : [هكذا نفعل]، قال الحاكم : [صحيح الإسناد على شرط مسلم] » .

يقول الغزالى فى آداب المتعلم والمعلم ووظائفه : « الوظيفة الرابعة : أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله، ويحيِّر ذهنه، ويفتُر رأيه، ويوئسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغى أن يتقن أولاً الطريق الحميدة، الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه، وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأى واحد، وإنما عادته نقل المذاهب، وما قيل فيها، فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمى لقود العميان، وإرشادهم، ومَنْ هذا حاله يُعد فى عمى الحيرة، وتيه الجهل، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، وندب القوى إلى النظر فى الاختلافات يضاهى حث القوى على مخالطة الكفار، ولهذا يمنع الجبان عن التهجُّم على صفِّ الكفار، ويندب الشجاع له »[1] .

كما يشترط متانة الدين فى هؤلاء العلماء الذين يلزمهم، ويتلقى عنهم، حيث يُربُّون بسلوكهم قبل أن يُربوا بأقوالهم .

الخامس : ماهية الطائفة المذكورة فى الحديث وخصائصها

اختلف العلماء فى تحديد ماهية الطائفة المذكورة فى الحديث، فذهب الإمام أحمد ابن حنبل إلى أنهم أهل الحديث، قائلاً : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى مَنْ هم »[2] ، وعلَّق على ذلك القاضى عياض فقال : « إنما أراد أحمد : أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث »[3] ، وذهب الإمام البخارى إلى أنهم أهل العلم[4] ، وكأنه استشف ذلك مما جاء فى صدر الحديث من قوله ﷺ : « من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » .

وذهب الإمام النووى إلى أن هذه الطائفة ليست محصورة فى شخص بعينه، وإنما تضم كل مسلم ملتزم بالإسلام، عامل له، مضح فى سبيله غير مبالٍ بما ينزل به من محن وشدائد من مفسِّر، ومحدِّث، وفقيه، وداعية، ومربٍّ، وطبيب، ومهندس، وقاضٍ، وكاتبٍ، وأديب، ومفتٍ، وباحثٍ ، وهلم جرا .

---

[1] انظر : إحياء علوم الدين ١/ ٥١ .
[2] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٨ .
[3] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٩ .
[4] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٨ .

فقد قال : « قلتُ : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرَّقة بين أنواع المؤمنين، منهم : شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض » [١] .

واستدل بصحة ما ذهب إليه بقوله : « وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبى ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتى أمر الله المذكور فى الحديث » [٢] .

وكلام النووى مع وجاهته وموضوعيته يعارضه من حيث المكان الذى تكون به هذه الطائفة حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعًا : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » [٣] ، إذ قال على بن المدينى المراد بأهل الغرب : العرب، وقال آخرون : المراد به الغرب من الأرض، وحديث : « آخره بيت المقدس » أى أهل الشام، وما وراء ذلك، والحق أنه لا تعارض، لأن هذه الطائفة إنما تكون ابتداء فى كل أنحاء الأرض، وأقواها، وآخرها يكون ببيت المقدس وما وراءه من بلاد الشام، إذى هى أرض الرباط كما جاء فى الحديث إلى قيام الساعة [٤] .

ب حتى تخص هذه الطائفة فهى كما فى الحديث .

١ ـ الفقه فى الدين فقهًا يجمع بين الأصالة والمعاصرة، والشمول، والوسطية، ورعاية أدب الخلاف، وأصول الوحدة، ونبذ الفرقة، ونحو ذلك من كل ما يسهم فى استمرار قيام الطائفة المذكورة فى الحديث بواجبها إلى الوقت الذى أبرمه الله، وقضاه.

٢ ـ الانتماء إلى هذه الأمة المسلمة لا إلى أمة أخرى، بدليل قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى . . . » .

٣ ـ الاستمساك بأمر الله بالتحلى به فى نفسها، ودعوة الآخرين إليه، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا .

٤ ـ الصبر على المحن والشدائد التى تعترض طريق هذه الطائفة إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

---

[١] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٩ .

[٢] الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : قوله ﷺ : « لا تزالُ طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » ١٣/ ٧٠ رقم ٤٩٣٥/ ١٧٧/ ٩ من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

[٣] انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٧٠ .

٥ ـ الظهور على الناس بالحق ، والغلبة به ودليل هذه الخصائص الآخرة جميعًا قوله ﷺ : « قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله، وهم ظاهرون على الناس » .

ما يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

١ ـ الحرص على الفقه فى الدين لكونه مأمورًا به فى الكتاب والسنة والفوائد والثمرات التى مضى الحديث عنها خلال شرح الحديث .

٢ ـ اليقين أن خيرية الأمة الإسلامية مستمرة إلى قرب قيام الساعة كما يكشف عن ذلك قيام الطائفة المذكورة فى الحديث بالتحلى بمبررات هذه الخيرية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحيث يثمر هذا اليقين القضاء على اليأس والقنوط، ثم غرس الثقة والأمل فى النفوس .

٣ ـ دعوة كل مسلم أن يؤدى واجبه بكل ما لديه من طاقات وإمكانات، وأن يتحمل مشاق الطريق ومتاعبها فيكون له شرف الانتماء للطائفة المذكورة فى الحديث، وهذه الدعوة مأخوذة من الحديث تلميحًا لا تصريحًا؛ لأن التعبير بالخير فى الحديث مآله الأمر، كأنه قال : كونوا ضمن هذه الطائفة القائمة بأمر الله والمستمسكة به دون مبالاة بخذلان المخذِّلين، ومخالفة المخالفين إلى أن يأتى أمر الله وهم على الناس ظاهرين.

٤ ـ زيادة اليقين بصدقه ﷺ فى دعوى النبوة والرسالة، حيث أخبر بما أخبر به، وصدَّقه الواقع من عصره إلى اليوم رغم العقبات والمعوِّقات، وسيظل الأمر كذلك إن شاء الله إلى قيام الساعة، فكانت هذه أمارة من أمارات النبوة، وتظهر ثمرة زيادة هذا اليقين فى مزيد من تحكيمه ﷺ فى كل شؤون الحياة الجلىِّ منها والخفىِّ، والكبير والبسيط، مع الرضا بما قضى والتسليم ظاهرًا وباطنًا، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٦٥) ﴾ [النساء] .

٥ ـ تحقيق وعد الله بحفظ دينه فى قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩) ﴾ [الحجر] ، إذ أبقى فى هذه الأمة مثل هذه الطائفة لحفظ دينه، وحمايته من كيد الكائدين وعبث العابثين .

الحديث الثالث والثلاثون

عن أنس بن مالك ، عن معاذ بن جبل قال : كنتُ رِدفَ النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل ، فقال : « يا معاذ بن جبل » ، قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال : « يا معاذ بن جبل »، قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك، قال : « هل تدرى ما حق الله ـ عز وجل ـ على العباد ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم، قال: « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»، ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك، قال : « هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « ألا يعذبهم » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير: باب: اسم الفرس والحمار، رقم ٢٨٥٦، وكتاب اللباس: باب: إرداف الرجل خلف الرجل رقم ٥٩٦٧، وكتاب الاستئذان : باب : من أجاب بلبيك وسعديك رقم ٦٢٦٧، وكتاب الرقاق، باب: من جاهد نفسه فى طاعة الله رقم ٦٥٠٠، وكتاب التوحيد : باب: ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى رقم ٧٣٧٣ .

ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا رقم ١٤٣ ـ ٤٨/١٤٦ ـ ٥١/ ٣٠ أ، ب، جـ، د، وهذا لفظه .

والترمذى فى : الجامع : كتاب الإيمان : باب : ما جاء فى افتراق الأمة رقم ٢٦٤٣، وعقَّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوى من غير وجه عن معاذ بن جبل » .

وابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد : باب : ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة رقم ٤٢٩٦ .

وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٣٨ كلهم من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا مع تفاوت فى اللفظ .

وينبغى الانتباه إلى أن هناك حديثًا آخر رواه أنس بن مالك أيضًا عن معاذ فيما يتعلق بجزاء من مات على التوحيد صدقًا من قلبه، وقد أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب العلم : باب: من خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا رقم ١٢٨ .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا رقم ١٤٨/ ٥٣/ ٣٢، ولما تشابه الحديثان فى أن معاذًا كان رديف النبىﷺ فى كل منهما، وأنه وقع فى كل منهما منع النبىﷺ معاذًا أن يخبر الناس لئلا يتكلوا : ظنهما بعض العلماء ـ كأبى نصر الحميدى الأندلسى المتوفى ٤٨٨، ومن تبعه ـ أنهما حديثٌ واحد، والحق أنهما حديثان لاختلاف موضع كل من ناحية، ولتضمن حديث جزاء من مات على التوحيد جملة: « فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا » تلك التى خلا منها هذا الحديث .

من ناحية أخرى : كما بيَّن ذلك الحافظ ابن حجر العسقلانى فى : فتح البارى ٦/ ٦٠ .

المعنى الإجمالى للحديث :

قامت الدلائل العقلية والنقلية والفطرية على أن الله واحد حى قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، موصوف بكل كمال، مُنزَّه عن كل نقص كما قامت الدلائل كذلك على أن كل نعمة دقَّت أو عظُمت ، ظهرت أو خفيت، مردها إلى الله ـ عز وجل ـ وما أكثر هذه النعم : قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)** ﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ...** ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ...** ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨] .

وإذا كان الأمر على ما ذكر فإن حق الله على عباده أن يخضعوا له وينقادوا ظاهرًا، وباطنًا، مع كمال الحب والتعظيم، ومع الاستمرار والدوام .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يشير إلى هذا الحق، وجزائه، وقد سلك النبى ﷺ فى بيانه مسلك السؤال المتكرر مع الصمت برهة من الزمن عند كل مرة يسأل فيها بغرض أن يجمع السامع همته، وأن يستحضر ذهنه حتى إذا كان الجواب وقع من النفس كل موقع .

إذ سأل معاذًا عن حق الله على عباده، وكان معاذ رضي الله عنه غاية فى حُسن التأدب، وكمال التفويض حين ردَّ الأمر فى ذلك كله إلى الله ورسوله، وكان جواب النبى ﷺ أن العبادة لله القائمة على التوحيد، وعدم الشرك هى حق الله على عباده الذى لا يجوز إهداره أو إهماله بحال، ثم بيَّن النبى ﷺ أن جزاء من عبد الله فلم يشرك به شيئًا إنما هو الجنة بغير سابقة عذاب ، ولكن عبَّر عن هذا الجزاء بالحق الذى أوجبه الله على نفسه، ولم يوجبه عليه أحد من خلقه من باب: الحث، والتحريض، والتشجيع .

ولتتضح معالم الحديث بصورة أكثر فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : معانى المفردات والجُمل والمغزى الذى ترمى إليه هذه المفردات والجُمل .

الجانب الثانى : تعريف العبادة ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها، وسرُّ التحذير من الشرك .

الجانب الثالث : مبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول : معانى المفردات والجُمل والمغزى الذى ترمى إليه هذه المفردات والجُمل :

قوله : « كنتُ رِدف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل » :

« الردف » : أصل الردف، والإرداف : الركوب أو الإركاب على ردف الدابة أى: عجزها ، كما يطلق على : التابع، والتتابع، ويطلق كذلك على : التأخر والتأخير، ويطلق أيضًا على الدنوّ والقُرب، والإدناء والتقريب ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ هو ركوب المرء خلف غيره على سبيل التبعية والتأخر لكن مع الدنوّ والقُرب[1] .

---

(١) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى ٢/ ٩١ ـ ٩٣ بتصرف كثير، والنهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة : « رَدِفَ » ، وفتح البارى لابن حجر ١٣/ ٤٢٩ (١٠/ ٣٩٨) بتصرف .

والمراد به فى الحديث هو ركوب معاذ خلف النبى ﷺ مع دنوّه منه وقربه لا يفصل بينهما إلا مؤخره، الرحل، ومأخرة الرحل هى الخشبة أو العود الذى يُجعل خلف الراكب يستند إليه كى لا يؤذيه الركوب، وقصد معاذ من وراء هذه الجملة : المبالغة فى شدة قربه، كما قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١١/ ٣٣٩ ـ ليكون أوقع فى نفس سامعه أنه ضبط ما رواه .

قوله : « لبيك يا رسول الله وسعديك » :

إجابة بعد إجابة، وإسعاد بعد إسعاد، وكرر النبى ﷺ السؤال ثلاثًا مع السكوت برهة من الزمن بعد كل سؤال ليحمل معاذًا على العناية والاهتمام بما يخبره به فيجمع همته، ويستحضر ذهنه، ويفهم ما يلقى عليه جيدًا، ويعيه، ويعمل به، ويبلّغه غيره بما يمكن من أساليب البلاغ ووسائله التى لا تتعارض مع سادئ الشرع الحنيف (١) .

قوله : « هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ » :

أى : ما يستحقه على عباده مما كلفهم به من حكمه، وألزمهم إياه بصورة دائمة لا انقطاع فيها ولا تردد .

قال القرطبى : « وحق الله على عباده : ما أوجبه عليهم بحكمه، وألزمهم إياه بخطابه » (٢) .

قوله : « قال : هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » :

المراد : ما وعدهم به من الثواب والجزاء، وقد جعل ربُّ العزة هذا الوعد بمثابة حق للعباد عليه تفضلاً منه وكرمًا، ولا يجوز تخلفه ؛ لأن الكريم إذا وعد لا يُخلف وعده (٣) .

قوله : « ألا يعذبهم » :

يقصد أن الله يُدخلهم الجنة دون سابقة حساب ولا عذاب .

الجانب الثانى : تعريف العبادة . ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها .

لغة : تطلق العباد فى اللغة على معانٍ ، نذكر منها :

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبى ١/ ٢٠٣ بتصرف .

(٢) ، (٣) انظر : المفهم ١/ ٢٠٣ .

١ ـ الانقياد، والخضوع، والذل مطلقًا، تقول : عَبَدَ فلانٌ فلانًا : انقاد له وخضع وذلَّ، وعبَّدَ الطريق : ذلَّلهُ، وقيل الانقياد والخضوع والذل لكن مع التعظيم .

٢ ـ الطاعة، تقول : عَبَدَه أطاعه [١] .

ولا تعارض بين المعنيين ، إذ الطاعة الحقَّة منشؤها التذلل والخضوع، كما أن صدق التذلل والخضوع يقود إلى كمال الطاعة .

وفرَّق الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى بين : العبودية والعبادة بقوله : « والعبودية إظهارُ التذلُّل، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التَّذلل ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالبارى تعالى » [٢] .

شرعًا : أما العبادة فى لسان الشرع فهى ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة » [٣] .

مضمون العبادة ومحتواها مع الدليل :

ومضمون العبادة ومحتواها : شعب الإيمان البضع والستون أو البضع والسبعون التى جاء بها حديث أبى هريرة مرفوعًا : « الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان » [٤] ، وفى رواية : « الإيمان بضع وسبعون : أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان » [٥] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ١/٥٩٦، والصحاح فى اللغة والعلوم لنديم وأسامة المرعشيلين ، ص ٧٠٠، المعجم الوسيط ٢/٥٧٩، ٥٨٠ مادة : « عبد » بتصرف .

(٢) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٣/٢٧ .

(٣) انظر : العبادة فى الإسلام ، للدكتور يوسف القرضاوى ، ص ٣١ ، نقلاً عن : رسالة العبودية لابن تيمية.

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: أمور الإيمان بهذا اللفظ على سبيل الجزم ١/٩ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: بيان عدد شُعب الإيمان وأفضلها، وأدناها ١/٦٣ رقم ٥٧ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان »، ورقم ٥٨ بلفظ : «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان »، وأبو داود فى: السنن: كتاب السنة : باب: فى رد الإرجاء ٥/٥٥، ٥٦ رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال : « الأذى » بـ « العظم » ، والترمذى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب: الإيمان : باب: ما جاء فى استكمال الإيمان، وزيادته ونقصه ٥/١٢ رقم ٢٦١٤ بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون بابا ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرفعها قول : لا إله إلا الله » ، وعقَّب عليه بقوله : [هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى سهيل بن أبى صالح، عن عبد الله بن دينار، =

وقد ساق ابن تيمية تصورًا لها ، فقال : « فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عبادة، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والخادم، والرحمة بالضعيف، والرفق بالحيوان عبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء فى رحمته، والخوف فى عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة، بل الدين كل داخل فى معنى العبادة، وخير دليل على صحة هذا المضمون، وذلك المحتوى كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبى ﷺ ، إذ كتاب الله ناطق أن العبادة هى الحياة كلها، وحسبنا آية البر : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة] .

وحسبنا كذلك قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾ [الإسراء] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ... ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله ﷺ : « إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومُنبله ، وارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلىَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه

= عن أبى صالح، عن أبى هريرة، وروى عمارة بن غزية هذا الحديث، عن أبى صالح، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « الإيمان : أربعة وستون بابًا » ، قال : حدثنا بذلك قتيبة، عن بكر بن مضر، عن عمارة بن غزية به]، والنسائى فى: السنن: كتاب الإيمان: باب: ذكر شعب الإيمان ٨/ ١١٠ كرواية مسلم الأولى، وكرواية أبى داود [المجتبى] ٦/ ٥٣٢ رقم ١١٧٣٥، ١١٧٣٦ [السنن الكبرى]، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب: فى الإيمان ١/ ٢٢ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

بقوسه، ونبله، ومَن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها »[١] .

وقوله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان به صدقة »[٢] ، وفى رواية ثانية : « ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة »[٣] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فى الرمى ٣/٢٨، ٢٩ رقم ٢٥١٣، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله ٣/١٤٩رقم ١٦٣٧، وعقّب عليه بقوله: « وفى الباب: عن كعب بن عجرة، وعمرو بن عبسة، وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى: السنن: كتاب الخيل : باب: تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢، ٢٢٣ [المجتبى]، ٣/ ٣٩، ٤٠ رقم ٤٤٢٠ [الكبرى]، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الجهاد: باب: الرمى فى سبيل الله ٢/ ٩٤٠ رقم ٢٨١١، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٤٦، والحاكم فى المستدرك : كتاب الجهاد: باب: من علم الرمى ثم تركه فهى نعمة كفرها ٢/ ٩٥ كلهم من حديث عقبة بن عامر مرفوعًا به، وبنحوه، وعقّب الحاكم بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقره الذهبى على ذلك فى : التلخيص، وساق الحاكم له شاهدًا من حديث أبى هريرة مرفوعًا : « كل شىء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة : انتضالك بقوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك أهلك، فإنها من الحق »، وقال : انتضلوا، واركبوا، وأن تنتضلوا أحب إلى ، إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة : صانعه يحتسب فيه الخير، والمتنبِّل، والرامى به »، وقال : صحيح على شرط مسلم »، ولم يوافقه الذهبى على ذلك، إذ قال فى : التلخيص : « قلت : كذا قال، وسويد ـ يقصد ابن عبد العزيز، أحد رجال الإسناد ـ متروك».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المزارعة : باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٣/ ١٣٥ عن قتيبة، وعبد الرحمن بن المبارك، وكتاب الأدب: باب: رحمة الناس والبهائم ٨/ ١٢ عن أبى الوليد ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١٨٩ رقم ١٢/١٥٥٣، وعن يحيى بن يحيى ، وقتيبة ، ومحمد بن عبيد بن حساب، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب: ما جاء فى فضل الغرس ٣/ ٦٦٦ رقم ١٣٨٢ عن قتيبة ، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢٨، ٢٢٩ عن يونس، ٢٤٣ عن عفان، سبعتهم: أعنى: [قتيبة، وعبد الرحمن بن المبارك، وأبا الوليد، ويحيى بن يحيى ، ومحمد بن عبيد الله بن حساب، ويونس ، وعفان] ، عن أبى عوانة الوضاح اليشكرى ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعًا ، واللفظ لمسلم ، وعقّب الترمذى على حديثه بقوله : « حديث أنس حديث حسن صحيح » .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب المزارعة (المساقاة) : باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٣/١٥٥٣، وعن عبد بن حميد، عن مسلم بن إبراهيم، عن أبان بن يزيد ، والبخارى فى : الصحيح: كتاب المزارعة : باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه ٣/ ١٣٥ قائلاً : وقال لنا مسلم : حدثنا أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس مرفوعًا، ولفظ مسلم : أن نبى الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشِّر ـ امرأة من الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ : « من غرس هذا النخل ؟ أمسلم أم كافر ؟ » ، قالوا : مسلم ، بنحو حديثهم ، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٩٢ عن بهز وعفان قالا : حدثنا أبان ، عن قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر ـ امرأة من الأنصار . . . » الحديث .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب المساقاة: باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١٨٨ رقم ١٥٥٢/ ١١٠٧ من عدة طرق إلى جابر بن عبد الله مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه، والدارمى فى: السنن: كتاب =

وقوله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء » [١] ، وقوله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى » [٢] .

وحسبنا أيضًا أن حياته ﷺ فى سِلْمه، وحربه، فى حِلِّه وترحاله، فى خاصة نفسه، ومع أهله وذويه، فى نومه ويقظته، فى كلامه وصمته، فى أكله وشربه، مع الخالق والمخلوق، فى كل أحواله كانت لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكانت عبادة تطبيقًا لقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] .

وحسبنا كذلك تطبيقات المسلمين من لدن عصره ﷺ إلى أن طرأ الضعف والانحطاط على حياتهم فى عصرنا هذا، إذ كان منهم الخليفة والأمير والوالى، والعامل، والقاضى، والمعلِّم، والمتعلم، والزارع، والصانع، والتاجر، والشرطى، والمجاهد، ونحو ذلك من الحرف والمهارات، بل إن الأمر اللافت للنظر هو أن العلماء فى الجملة كانوا يحترفون مع الاشتغال بالعلم استغناءً عمَّا فى أيدى السلاطين، وغيرهم من الناس فيظلون أحرارًا فى الجهر بالحق، وإنكار المنكر بضوابطه الشرعية من غير أن تأخذهم فى الله لومة لائم، ولم يكن الاشتغال بهذه الحرف فى فقههم خارجًا عن مضمون العبادة ومحتواها .

= البيوع : باب : فضل الغرس ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ من حديث جابر بن عبد الله ، عن أم مبشِّر ، عن النبى ﷺ به، وأحمد فى : المسند ٦/ ٤٢٠ من حديث جابر، عن أم مبشِّر مرفوعًا به .

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البيوع : باب: ما جاء فى التجار وتسمية النبى ﷺ إياهم ٣/ ٥١٥ رقم ١٢٠٩، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب: فى التاجر الصدوق ٢/ ٢٤٧ من حديث أبى سعيد مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب: فضل أزواج النبى ﷺ ٥/ ٦٦٦، ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى، وإذا مات صاحبكم فدعوه » ، وعقَّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثورى، ما أقل من رواه عن الثورى، ورُوِى هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبى ﷺ مرسل » .

وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب: حُسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى »، وعقَّب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٢/ ١١٧، ١١٨ بقوله : « الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها رواه الترمذى فى جامعه، وابن حبان فى صحيحه، وأما رواية ابن عباس فإسناد ضعيف ؛ لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبّان فى : الثقات ، وقال عبد الحق : ليس بالقوى ، وقال ابن القطان : مجهول الحال » ، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا : « خياركم خياركم لنسائهم »، وعقَّب عليه البوصيرى فى : المصباح ٢/ ١١٨ بقوله : « إسناده على شرط الشيخين .

والحديث رواه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال : « حسن » ، والدارمى فى : السنن : كتاب النكاح : باب: فى حسن معاشرة النساء ٢/ ١٥٩، بإسناد الترمذى، ولفظه .

فأبو حنيفة : النعمان بن ثابت ت ١٥٠هـ صاحب أول المذاهب الأربعة المشهورة المتبوعة كان بزازًا ، ومسلم بن الحجاج صاحب أصح الكتب بعد كتاب الله، وبعد صحيح البخارى ت ٢٦١هـ كان بزازًا ، وغيرهما وغيرهما .

أقسام العبادة وشروط صحة كل منها :

تنقسم العبادة إلى قسمين :

الأول : عبادة مقيدة أو مخصوصة وهى التى حدد الشارع جوهرها وشكلها من العقيدة، والشعائر التعبدية : صلاةً ، وزكاةً ، وصيامًا ، وحجًا وعُمرةً ، ونحوها ، وهذه لا تُقبل إلا بشرطين :

١ ـ اتباع السُّنة بحيث لا يكون فيها تغيير بزيادة أو نقص أو تحريف .

٢ ـ الإخلاص بحيث لا يبقى فيها حظ لغير الحق تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف] .

وقال النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى ، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه » (١) ، وقال النبى ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : باب: كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/١، وكتاب العتق : باب: الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ٣/١٩١، وكتاب مناقب الأنصار : باب: هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٥/٧٢، وكتاب النكاح : باب: من هاجر أو عمل خيرًا لتزويج امرأة فله ما نوى ٧/٤، وكتاب الطلاق : باب: الطلاق فى الإغلاق والكره [الترجمة] ٧/٥٨، وكتاب الإيمان : باب: النية فى الإيمان ٨/١٧٥، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٩/٢٥، وكتاب الحيل : باب: فى ترك الحيل ٩/٢٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » ٢/١٥٧، ١٥٨، وأبو داود فى : السنن : كتاب الطلاق : باب: فيما عُنى به الطلاق والديات ٢/٥١٠، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فيمن يقاتل رياءً وللدنيا ٤/١٧٩، ١٨٠، وقال : « هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب: النية فى الوضوء ١/٥١، وكتاب الطلاق: باب: الكلام إذا قصد به النية فى اليمين ٧/١٢، ١٣، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب: النية ٢/١٤١٣ رقم ٤٢٢٧، وأحمد فى: المسند ١/٢٥، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الصلح: باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح =

الآخر : عبادة مطلقة أو عامة، وهى التى لا تسود الأمة، ولا تقوى شوكتها إلا بها من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحِرَف، والصناعات، ونحوها، وهذه لم يتدخل الشرع فيها إلا بوضع شروط لها وضوابط، وأهم هذه الشروط وتلك الضوابط :

١ ـ ألا تتعارض مع كتاب الله وسنّة رسوله نصا أو استنباطًا .

٢ ـ أن يكون فيها نفعٌ أو مصلحة للفرد والجماعة .

٣ ـ أن يُراد بها وجه الله ومرضاته .

قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣)** ﴾ [الأنفال] ، وقال تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...** ﴾ [المائدة : ٤٨]، وقال تعالى : ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)** ﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)** ﴾ [النساء] .

سر التحذير من الشرك مع أن العبادة الحقة تقتضى التحرر منه :

وسرُّ التحذير من الشرك مع أن العبادة الحقة تقتضى التحرر منه: أن نفرًا من الناس يقعون فى الشرك، وهم يعبدون الله تشبهًا ببعض الكفرة، الذين كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون معه آلهة أخرى، فاشترط النبى ﷺ نَفْىَ ذلك [١] ، كأن تقدير الكلام : أن حق الله على عباده أن يعبدوه حال عدم الإشراك به على حد قوله سبحانه : ﴿ **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...** ﴾ [النور : ٥٥] .

وإنما اشترط النبى ﷺ نفى الشرك ؛ لأن وجوده يحبط العمل، ويوجب الخلود فى النار: قال تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)** ﴾ [الفرقان] ،

= مردود ٣/ ٢٤١، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأقضية : باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٣/ ١٣٤٣، ١٣٤٤ رقم ١٧/١٧١٨، ١٨، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب: فى لزوم السنة ٥/ ١٢ رقم ٤٦٠٦، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة : باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ١/ ٧ رقم ١٤، وأحمد فى : المسند ٦/ ٢٧٠ كلهم من حديث عائشة مرفوعًا به، وزاد مسلم فى روايته الثانية : أن سعد بن إبراهيم قال : سألتُ القاسم بن محمد عن رجل له ثلاثة مساكن ، فأوصى بثلث كل مسكن منها ، قال : يجمع ذلك كله فى مسكن واحد، ثم قال : أخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

[١] انظر : فتح البارى ١٤/ ٥٢١ ط دار أبى حيان ١١/ ٣٣٩ ط السلفية .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ... ﴾ [المائدة : ٥]، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ [المائدة] .

ويقول النبى ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليومٍ لا ريب فيه نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمل عَمِله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »[1] ، إلى غير ذلك من الدلائل .

الجانب الثالث : مبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده :

ومبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده كثيرة، منها :

١ ـ وحدانية الله ، وكمالاته التامة، وجلاله المطلق مع التنزه عن كل نقص، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾ [طه] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر] .

وفحوى هذا المبرر : اطمئنان الناس أن ربهم معهم يرعاهم على قدم المساواة، ولا يتخلى عنهم أبدًا لاسيما إذا عبدوه حق عبادته .

٢ ـ نعم الله التى لا تُعد ولا تحصى ما ظهر منها وما بطن ، ما علمنا منها ، وما لم نعلم مع استمرار هذه النعم وإن عصى الناس .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤، النحل : ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب: ومن سورة الكهف ٥/ ٣١٤ رقم ٣١٥٤، وقال عقيبه : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » ، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب: الرياء والسمعة ٢/ ١٤٠٦ رقم ٤٢٠٣، وأحمد فى : المسند ٣/ ٤٦٦، ٤/ ٢١٥ كلهم من حديث أبى سعيد بن أبى فضالة، وكان من الصحابة مرفوعًا، واللفظ لابن ماجه .

فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النحل] .

٣ ـ أمر الله ورسوله بذلك :

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت].

وقال ﷺ لوفد عبد القيس : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا . . . » الحديث (١) .

والمسلم الحق لا يسعه أمام أمر الله ورسوله إلا الامتثال . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].

الجانب الرابع : الجزاء الذى يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حق الله عليه من العبادة الخالية من الشرك :

الجزاء الذى يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حق الله عليه من العبادة الخالية من الشرك هو السلامة من العذاب كما فى الحديث : « ألا يُعذبهم » ، وهذا أدناه، أما أعلاه فهو الحياة الطيبة فى الدنيا، والجنة والرضوان فى الآخرة، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [العنكبوت] .

مع الاطمئنان إلى تحقيق هذا الجزاء إذا تحقق شرطه، إذن فالله هو الذى أوجب

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الصلاة : باب: قول الله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) ﴾ [الروم] ص ٨٩ ، رقم ٥٢٣ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا : إنا من هذا الحى من ربيعة ولسنا نصل إليك إلا فى الشهر الحرام، فمرنا بشىء نأخذه عنك، وندعو إليه من وراءنا، فقال: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله وحده ـ ثم فسرها لهم ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا إلىَّ خُمس ما غنمتم، وأنهى عن الدُّباء، والحنتم، والمقيَّر، والنقير » .

ذلك على نفسه، وألزمها به عندما سمَّى ذلك حقا، مع أنه لا موجب لأحد على الله، ولا ملزم له بشيء أبدًا فكان ذلك منه سبحانه تطمينًا وتشجيعًا للمضى فى العبادة مع التخلص من الشرك بكل صوره وأشكاله، ولا عبرة بما ذهب إليه المعتزلة فى أن الوجوب على الله إنما هو عقلى، لا شرعى ؛ لأن الله ـ كما يقول القرطبى : « لا يجب عليه شيء بحكم الأمر، إذ لا أمر فوقه، ولا بحكم العقل، إذ العقل كاشف لا موجب » (١) .

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يُستفاد من الحديث دعويا وتربويا عدة فوائد ، نذكر منها :

١ ـ أن عبادة الله التى رأسها التوحيد الخالى من كل شائبة شرك : حق ثابت لله على عباده، لا يصح إهماله، أو التفريط فيه بحال، ويعين على الالتزام بهذا الحق :

أ ـ تذكر كمال الله، وجلاله، إذ ذلك يقتضى الحب، والتعظيم، والتوحيد، والتخلص من الشرك ظاهره وباطنه، كبيره وصغيره، ما علمنا منه وما لم نعلم .

ب ـ استحضار أن الله أمر بهذه العبادة فى قوله : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾ [العنكبوت]، كما أمر بها الرسول ﷺ على النحو الذى ذكر آنفًا، والمسلم الصادق لا يسعه أمام أمر الله ورسوله سوى الخضوع والتسليم والانقياد.

جـ ـ الوقوف مع النِّعم جملة وآحادًا، وكف يفيض بها الحقُّ تبارك وتعالى على عباده وإن عصوه وخالفوه، فإن ذلك يحمل على الاستحياء، ثم المسارعة إلى إتيان ما يحبه الله ويرضاه، والبعد عن كل ما يبغضه الله ولا يرضاه، وهل العبودية سوى ذلك؟

٢ ـ أن جزاء عبادة الله الحقة : الحياة الطيبة فى الدنيا، والنجاةُ من النار والفوز بالجنة غدًا، فضلاً من الله ونعمة، لقوله سبحانه : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)** ﴾ [النحل] .

٣ ـ أهمية التهيئة الحافزة فى جمع الهمَّة، وحضور الذهن، والقلب، الأمر الذى يساعد على الاستيعاب، والتحليل، والاستنباط، وقد تجلَّت هذه التهيئة فى ندائه ﷺ معاذًا عدة مرات دون مفاتحته فى شيء، حتى إذا صار مهيأ كان السؤال، وكان معه الجواب.

---

(١) انظر : المفهم للقرطبى .

٤ ـ فضل السؤال فى تحصيل العلوم والمعارف، إذ المرء إذا سئل جمع همته لينطق بالجواب، فإن عجز أصغى ليسمع الجواب، ثم يعمل جاهدًا على الاحتفاظ به، وأن يظل ذاكرًا له فلا ينساه .

٥ ـ رحمة الله بعباده، وفضله عليهم بعظيم المثوبة، وجميل المكافأة إن هم عبدوه، فلم يشركوا به شيئًا، بل تشجيعهم حين جعل ذلك حقا لهم، وأوجبه على نفسه، والكريم إذا تفضل بوعد ما أنفذه على وجهه الذى به تنشرح الصدور، وتقرُّ الأعين، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)** ﴾ [لقمان] .

obeikandl.com

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبى موسى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ٦/ ٣٤ ـ ٣٦ رقم ٢٨١٠ [فتح البارى] ، وكتاب العلم : باب: من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا ١ / ٢٩٦ رقم ١٢٣ ، بلفظ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، ما القتال فى سبيل الله، فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حميَّة ؟ فرفع إليه رأسه ، قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا ـ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عزَّ وجلَّ » .

وكتاب فرض الخمس : باب : من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، ص ٥١٧ رقم ٣١٢٦ بلفظ : قال أعرابى للنبى ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، من فى سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وكتاب التوحيد : باب: قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصافات] ص ١٢٨٥ رقم ٧٤٥٨ بلفظ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله، ص ٨٥٢ رقم ١٤٩/ ١٩٠٤/ ٤٩١٩ بلفظ البخارى فى : فرض الخمس، ورقم ١٥٠/ ١٩٠٤/ ٤٩٢٠ بلفظ البخارى فى : التوحيد غير أنه قدم : الشجاعة على الحميَّة، ورقم ١٥١/ ١٩٠٤/ ٤٩٢٢ بلفظ البخارى فى : العلم .

وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ص ٣٦٥، رقم ٢٥١٧، بلفظ : أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن الرجل يقاتل للذكر، ويقاتل ليحمد، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليُرى مكانه، فقال رسول الله ﷺ: « من قاتل حتى تكون كلمة الله هى أعلى، فهو فى سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ » .

والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فيمن يقاتل رياء، وللدنيا، ص ٣٩٤ رقم ١٦٤٦ بلفظ مسلم رقم ١٥١، وعقب بقوله : « وفى الباب: عن عمر ، وهذا حديث حسن صحيح » .

والنسائى فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ص ٤٣١، رقم ٣١٣٨ بلفظ أبى داود، غير أنه لم يذكر : « ويقاتل ليحمد » .

وابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: النية فى القتال ، ص ٤٠٢، رقم ٢٧٨٣ بلفظ مسلم رقم ١٥٠، وكلهم من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

معانى المفردات :

« للمغنم » : يعنى : يقصد الغنيمة والربح المادى .

« يقاتل للذكر » : « يعنى: ليُذك بين الناس، ويُشار إليه بالبنان، ويشتهر بالشجاعة كما دل على ذلك ما ذُكر فى كتاب التوحيد : « ويقاتل شجاعة » .

« يقاتل ليُرى مكانه » : يعنى : للرياء، كما دلَّ على ذلك ما ذكر فى كتاب : فرض الخمس .

« ويقاتل رياء » : وفرق هذه الخصلة من سابقتها، أن سابقتها يقصد صاحبها بها (السمعة) ، وهذه يقصد بها صاحبها أن يراه الناس يعنى : « الرياء » .

« ويقاتل حمية » : يعنى : عصبية لأهل، أو عشيرة، أو صاحب، أو أرض، أو وطن .

« يقاتل غضبًا » : يعنى لأجل حظ نفسه [١] ، وهناك تفسير آخر لابن حجر ، إذ قال: «ويحتمل أن يفسَّر القتال للحميَّة بدفع المضرة، والقتال غضبًا بجلب المنفعة»[٢].

---

(١) انظر فى كل معانى المفردات : فتح البارى ٦/ ٣٥، ٣٦ رقم ٢٨١ بتصرف، والكواكب الدرارى للكرمانى ٦/ ١١٢، ١١٣.

(٢) انظر : فتح البارى ٦/ ٣٦ .

المعنى الإجمالى للحديث :

يُعدَّ الجهاد فى سبيل الله الحصن الحامى لدين الله من أن يتطاول عليه المتطاولون، أو يعبث به العابثون، وقد وعد الله المجاهدين الأجر العظيم فى الدنيا والآخرة شريطة أن يكون جهادهم خالصًا لله عزَّ وجلَّ ، حمايةً لدينه، وإعلاءً لكلمته، وطمعًا فى مثوبته، فقال سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)** ﴾ [التوبة] .

ويبين النبىﷺ فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه الآن ، أن مقاصد الدنيا من طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب، قد تكون داخلة فى الشرط المذكور آنفًا إذا ما أريد من المغنم أن يكسب المجاهد رزقًا حلالاً لنفسه ولأهله فيستغنى به عن السؤال، بل يحمله على مواصلة الجهاد ومتابعته، وإذا ما أريد من إظهار الشجاعة إرهاب العدو وتخويفه، أو حمل الآخرين أن يكون شجعان مثله لإعلاء كلمة الله، وإذا ما أريد بالرياء اقتداء الآخرين من القاعدين، وحملهم على النهوض لأداء دورهم وواجبهم، أو نشاط الكسالى والفاترين منهم فى مواصلة الجهاد، وعدم الانقطاع، وإذا ما أريد بالحميَّة الدفاع عن الدماء، والأعراض، والأموال والأوطان والمقدسات لتبقى راية دين الله مرفوعة، خفاقة فى العالمين، وإذا ما أريد من الغضب الحفاظ على حياته، وعدم استعجال القتل أو الموت ؛ لأن المقام يقتضى مقارعة الظالمين وعدم التهاون معهم أو مهادنتهم فيبقى الحكم لله وحده، وقد تكون هذه جميعًا منافية لذلك الشرط إذا ما أريد من طلب المغنم التفاخر والمباهاة والتكاثر فحسب، على حدّ قول صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)** ﴾ [الكهف] .

وإذا ما أريد من الشجاعة إظهار العضلات، والتباهى بالقوة، وإذا ما أريد من الرياء الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس، وطلب المثوبة أو المكافأة منهم، وإذا ما أريد من الحميّة : العصبية الجوفاء التى تحمى ما يكون به التفاخر والتعاظم من الأهل والعشيرة، والأصحاب، والدار، والوطن، وإذا ما أريد من الغضب تخويف الآخرين، وإرهابهم ليبقى رفيعًا، عظيمًا فى أعين الآخرين .

وقد جاء ذلك البيان منهﷺ بكلمات موجزة، ولكنها من جوامع كلمهﷺ إذ لما سأله سائل عمن يقاتل لبعض هذه الخصال أو لها جميعًا ، من يكون منها فى سبيل

الله؟ أجابه ﷺ بقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ، وكأنه قال : فَصْلُ ذلك النيَّة ، فإن كانت نيته الله فهى جميعًا فى سبيل الله، وإن كانت نيته غير الله فهى جميعًا فى سبيل غير سبيل الله .

وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى فإننا سنعرض لهذه الجوانب :

الجانب الأول : حكم القتال للمغنم، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الثانى : حكم القتال لإظهار الشجاعة ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الثالث : حكم القتال للرياء ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الرابع : حكم القتال للحمية، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الخامس : حكم القتال للغضب، وأدلة هذا الحكم .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول : حكم القتال للمغنم ، وأدلة هذا الحكم :

اختلف العلماء فى حكم القتال للمغنم، فذهب القرطبى ـ صاحب المفهم ـ إلى أنه إذا كان الباعث على القتال هو طلب المغنم وحده، بحيث لو لم يتحقق هذا الباعث لقعد عن الجهاد، ولم يشارك فيه بصورة مَّا من الصور فإنه يكون مردودًا وقد حبط عمله، مستدلاً بحديث الباب: ، حيث لم يذكر النبى ﷺ المغنم و غيره مما تضمنه السؤال بمجموع روايات الحديث ضمن ما يكون به القتال فى سبيل الله [١] ، ويشهد له صنيع المنافقين فى العهد النبوى، وتخلفهم فى تبوك لكونها لم تكن مظنة المغنم .

وذهب ابن بطال، وتبعه ابن حجر العسقلانى إلى التفريق بين أن يكون مراده بطلب المغنم لكسب الحلال ليستغنى به هو وأهله وذووه، وليتقوَّى به على مواصلة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وبين أن يكون مراده هو التكاثر والمباهاة والتفاخر على حد قول صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف] ، فالأول مقبول، لأن مآله أن صار فى سبيل الله [٢] ، على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾ [البقرة : ١٩٨]، حين تحرَّج نفرٌ من

---

(١) انظر : المفهم للقرطبى ٣/ ٧٤٢، ٧٤٣ بتصرف .

(٢) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال ٢٥، ٢٦ بتصرف ، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٦/ ٣٦، ٣٧.

المسلمين أن يضم إلى الحج التجارة، فنزلت لبيان الجواز ما دام الهدف الأسمى الحج وغيره جاء تبعًا ، ومثل الحج : الجهاد، وسائر الأعمال .

وجاء عن النبى ﷺ قوله : « إن من خير معايش الناس رجلاً ممسكًا فرسه فى سبيل الله »[١] ، فجعل الجهاد ـ كما يقول صاحب المفهم: مما يصح أن يتخذ للمعاش، كما جاء عنه ﷺ قوله : « وجُعِل رزقى تحت ظل رمحى . . . الحديث »[٢] ، وما زال المسلمون من العصر النبوى إلى اليوم يجاهدون ويغزون، ويصيبون المال، وبه يستغنون، ويواصلون الجهاد والغزو، ولم يقل أحد إن عملهم هذا باطل أو شرك .

وأما الثانى فغير مقبول ؛ لأنه قصد به عرضًا من الدنيا مكاثرة ومباهاة ومفاخرة، كما دل على ذلك ظاهر حديث الباب، حيث لم يجعل طلب المغنم داخلاً فى سبيل الله[٣]، وحديث الذى خرج للجهاد وهو يريد عرض الدنيا، فقال النبى ﷺ : «لا أجر له»[٤]، ولا تعارض بين قول القرطبى، وقول ابن بطال ومَنْ معه، لأن القرطبى أجمل، وابن بطال ومن معه فصَّلوا، وجعلوا المدار على النية، وهذا هو الحق الذى يشهد له قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى . . . » الحديث[٥] .

وقوله ﷺ : « مَنْ غزا فى سبيل الله، ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى »[٦] .

بَيْد أنه إذا تجرد المرء عن طلب المغنم فلا شك أن منزلته أرفع، ومكانته أعلى عل ينحو ما وقع من هذا الصحابى الجليل الذى جاء النبى ﷺ فآمن به واتبعه، فقال :

---

(١) الحديث جزء من حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: فضل الجهاد والرباط، ص ٨٤٦ رقم ١٢٥/١٨٨٩/٤٨٨٩ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، ولفظه : « من خير معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة (صوت حضور العدو) ، أو فزعة (النهوض إلى العدو) طار عليه، يبتغى القتل والموت مظانَّه، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة (أعلى الجبل) من هذه الشعف، و بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا فى خير » .

(٢) انظر : المفهم للقرطبى ٣/٧٤٣ .

(٣) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول، ص ٣٧٨ .

(٤) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك : كتاب الجهاد : باب : لا أجر لمجاهد يبتغى متاع الدنيا ٢/ ٨٥ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله، وهو يبتغى عرضًا من عروض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ : «لا أجر له»، فسأله الثانية، والثالثة، فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » ، ثم عقَّب عليه بقوله : « وهو حديث حسن الإسناد، ولم يخرجاه »، وأقرَّه الذهبى فى التلخيص .

(٥) الحديث سبق تخريجه فى المجلد الأول ، ص ٣٠٩، ٣١٠ .

(٦) الحديث سبق تخريجه فى المجلد الأول ، ص ٣١٥ .

أهاجر معك، فأوصى به النبيﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول اللهﷺ فقسمه، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قسم قسمه لك رسول اللهﷺ ، فقال : ما على هذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى ههنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم، فأموت، فأدخل الجنة، فقال : « إن تصدق الله يصدقك »، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتى به رسول اللهﷺ يحمل، وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبىﷺ : « هو، هو ؟ » قالوا : نعم، قال : « صدق الله فصدقه »، وكفَّنه النبىﷺ فى جبة النبىﷺ ثم قدَّمه، فصلى عليه، وكان مما ظهر من صلاته : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك، قتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد »(١) .

الجانب الثانى : حكم القتال لإظهار الشجاعة، وأدلة هذا الحكم :

ذهب بعض العلماء إلى أنه إن قاتل للأجر والذكر أو لإظهار الشجاعة ، فجهاده مردود، وقد حبط عمله مستدلين بحديث الذى جاء إلى النبىﷺ يقول : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر، والذكر، ما له ؟ فقال رسول اللهﷺ : « لا شىء له »، فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول اللهﷺ : « لا شىء له »، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وابتُغى به وجهه »(٢) .

فكيف بمن كان همَّهُ الذكرُ أى : الصيت أو إظهارُ الشجاعة فقط، إن بطلان جهاد هذا، وحبوط عمله أولى، وأظهر .

وفرق ابن بطال وابن حجر بين أن يكون القصد من الذكر أو إظهار الشجاعة : إرهاب العدو، وتخويفه، أو حمل الآخرين، أن يكونوا شجعان مثله بحيث يستمر الجهاد، وتعلو راية التوحيد، وكلمة الله، وبين أن يكون القصد : إظهار العضلات، والتباهى بالقوة، أما الأول فمقبول ؛ لأنه آل فى الحقيقة إلى إعلاء كلمة الله التى أخبر النبىﷺ فى حديث الباب: أن القتال من أجلها هو الذى يكون فى سبيل الله(٣) .

ويمكن تقوية ذلك بما جاء عن النبىﷺ من قوله لأبى دجانة يوم أحد وقد أعلم

---

(١) الحديث سيأتى تخريجه فى : شرح الحديث : الثامن والثلاثين .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٣٢١ .

(٣) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال ٥/ ٢٥، ٢٦، وفتح البارى ٦/ ٣٥ بتصرف .

بعصابة حمراء، فنظر إليه وهو مختال فى مشيته بين الصفين فقال : « إنها مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموضع » (١) .

ومن قوله للمسلمين يوم عمرة القضاء، وقد قال المشركون: إنه يقدم عليكم وفدٌ وهنتهم حمَّى يثرب : « رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة »، وأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين (٢) .

وأما الثانى فغير مقبول بدليل حديث : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه : رجلٌ استشهد فأُتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، قال : كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل ، ثم أمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقى فى النار . . . » (٣) .

ولا تعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، والثانى فصَّل،وجعل المدار على النية، وهو الأظهر الذى يشهد له حديث الباب: ، وحديث : « إنما الأعمالُ بالنيات . . . » .

الجانب الثالث : حكم القتال للرياء وأدلة هذا الحكم :

قال نفرٌ من العلماء ـ منهم القرطبى صاحب المفهم : القتال رياءٌ : شركٌ مهلكٌ صاحبَه، ومستوجبٌ له النار، مستدلين بحديث الباب: حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد فى سبيل الله سوى إعلاء كلمة الله، وسكت عن الباقى بما فيه الرياء، وكأن سكوته هذا إعلان بأن ما عدا إعلاء كلمة الله ليس جهادًا فى سبيل الله (٤) ، ويشهد لكلامهم قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا، بعثك الله مرائيًا مكاثرًا، على أى حال قاتلت أو قُتلت بعثك الله بتلك الحال » (٥) .

وقوله ﷺ : « الغزو غزوان : فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق

---

(١) أخرجه الطبرانى فى : المعجم الكبير: مسند سماك بن خرشة (أبى دجانة الأنصارى) ٧/ ١٠٤ رقم ٦٥٠٨، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب المغازى : باب : منه فى وقعة أحد ٦/ ١٠٩، وعزاه إلى الطبرانى قائلاً : « رواه الطبرانى ، وفيه من لم أعرفه » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : باب : عمرة القضاء، ص ٧٢١، رقم ٤٢٥٦ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٣) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٤٣، ٤٤ .

(٤) انظر : المفهم ٣/ ٧٤٢ بتصرف .

(٥) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٣١٦.

الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجرٌ له ، وأما من غز فخرًا ورياءً، وسمعة، وعصى الإمام وأفسد فى الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف » [١] .

وفرَّق ابن بطال، وابن حجر بين أن يكون مقصوده تشجيع الآخرين كى يقدموا، ولا يتقاعسوا، ولا يتوانو، وبين أن يكون مقصوده إرضاء الناس،والظفر منهم بالمحمدة، والثناء بل والمكافأة، أما الأول فمقبول لحديث : « من سنَّ فى الإسلام سُنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ فى الإسلام سُنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [٢] .

وأما الثانى فغير مقبول ؛ لأنه نوع من الشرك، والشرك محبط العمل، موجب النار، والعياذ بالله [٣] .

ولا تعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، وهذا فصَّل، وجعل المدار على النية، وهذا هو الأليق الذى يشهد له حديث الباب: ، وحديث النيَّة، ومقاصد الشريعة .

الجانب الرابع : حكم القتال حميَّة، وأدلة هذا الحكم :

ذهب فريق من العلماء إلى أن القتال حميَّة محبط العمل، مستوجب الوزر مستدلين بحديث الباب: ، حيث اقتصر فى مبررات كون الجهاد فى سبيل الله على إعلاء كلمة الله .

ويشهد لهم حديث قُزْمان الذى كان يقول فيه النبى ﷺ إذا ذكر عنده : « إنه لمن أهل النار »، وقد صدقت الأيام ما قال النبى ﷺ ، إذ لما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديدًا، فقتل وحده : ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار أبى ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان فأبشر، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلتُ إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلتُ، ثم لما اشتدت عليه جراحته أخذ سهمًا من كنانته فقتل به نفسه [٤] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٣١٨ .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ٣٢٤ .

(٣) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال ٥/ ٢٥، ٢٦، وفتح البارى ٦/ ٣٥ بتصرف .

(٤) الحديث أورده ابن هشام فى : السيرة ٢/ ١٤٧، والطبرى فى : تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٥٣١، وعيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ٢١٠، ٢/ ١٦ من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، وأخرجه البخارى بلفظ آخر فى: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب: لا يقول فلان شهيد ٤/ ٤٥، وكتاب المغازى: باب: غزوة =

وفرَّق ابن بطال وابن حجر بين أن تكون الحمية من أجل حماية الوطن ليبقى دار إسلام تصان فيه الدماء، والأموال، والأعراض، والمقدسات، وبين أن تكون من أجل الأهل، والعشيرة، والأرض عصبية، أو تحزبًا .

أما الأول : فمقبول لأنه صار داخلاً ضمن إعلاء كلمة الله التى هى المبرر الحقيقى لكون الجهاد فى سبيل الله [١] ، ويشهد لذلك قوله سبحانه : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء] .

وحديث : « من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد » [٢] .

وأما الآخر : فغير مقبول ؛ لأنه صار لغير الله، كما جاء فى حديث قُزمان المذكور آنفًا .

ولا تعارض بين القولين ؛ لأن الأول أجمل، والثانى فصّل، وجعل النية هى المحور، وهى فصل الخطاب، ولعل هذا هو الذى تؤيده نصوص الكتاب والسنَّة، ومقاصد الشريعة .

الجانب الخامس : حكم القتال غضبًا . وأدلة هذا الحكم :

ذهب نفر من العلماء إلى أن القتال غضبًا لا يوجب لصاحبه أجرًا بل يأثم به، وعمله باطل، مستدلين بحديث الباب، حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد فى سبيل الله سوى إعلاء كلمة الله، أما باقى المبررات التى جاءت فى سؤال السائل، ومنها : الغضب، فقد أضرب عنها صفحًا، ولم يقم لها وزنًا .

= خيبر ٥/ ١٧٠، وكتاب القدر: باب : الأعمال بالخواتيم، وما يخاف منها، وباب : العمل بالخواتيم ٨/ ١٢٨، ١٥٥، والإمام مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١/ ١٠٦ رقم ١٧٩، وأحمد فى : المسند ٥/ ٣٣٢ من حديث سهل بن سعد الساعدى مرفوعًا، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب المغازى والسير : باب : منه فى وقعة أحد ٦/ ١١٦ بإسناد ابن هشام والطبرى، وإسناد البخارى ومسلم وأحمد، وعقَّب بقوله : « رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح »، وانظر تخريجه فى : من أخلاق النصر ، ص ٢٠٢ .

انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال ٥/ ٢٥، ٢٦، وفتح البارى لابن حجر ٦/ ٣٥ .

الحديث أخرجه النسائى فى : السنن : كتاب السنة : باب: فى قتال اللصوص، ص ٦٧٥ رقم ٤٧٧٢، وأبو داود فى : السنن : كتاب الديات : باب: ما جاء فيمن قاتل دون ماله فهو شهيد ص ٣٤٣، ٣٤٤ رقم ١٤٢١ كلاهما من حديث سعيد بن زيد ﷺ مرفوعًا .

وفصَّل آخرون بين أن يكون الغضب لله، وبين أن يكون للنفس، أما الأول فمحمود، لأنه صار والحال هذه قتالاً فى سبيل إعلاء كلمة الله، وصيانة حرماته [١] ، ويشهد لذلك حديث عمرو بن أقيش المعروف بأصيرم بن عبد الأشهل: « إذ كان له ربًا فى الجاهلية فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمِّى ؟ قالوا : بأُحد، قال: بأحد، فلبس لأمته، وركب فرسه، ثم توجه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنَّا يا عمرو، قال: إنى قد آمنتُ، فقاتل قتالاً حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ ﷺ ، فقال لأخيه سلمة: حميَّة لقومه، أو غضبًا لله ورسوله، فقال: بل غضبًا لله ورسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة»[٢].

وأما الآخر فمردود ؛ لأنه صار والحال هذه لغير الله ، وكل ما كان لغير الله فمردود، وباطل، إذ سأل عبد الله بن عمرو بن العاص رسول الله ﷺ: ما ينقذنى من غضب الله ؟ قال : « لا تغضب » [٣] .

ولا تعارض بين الرأيين ، إذ الأول أجمل، والآخر فصّل جاعلاً المدار على النية على نحو ما سبق به البيان فى سائر الخصال الواردة فى السؤال .

الجانب السادس : بعض النصوص الأخرى الواردة فى معنى الحديث :

جاءت نصوص أخرى فى معنى الحديث، منها :

قوله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى . . . » [٤] .

وقوله ﷺ: « مَنْ غزا فى سبيل الله، ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى » [٥] .

وقوله ﷺ: « « يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ؟ قالت عائشة : قلت : يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم ؟ قال: « يخسف بأولهم، وآخرهم، ثم يُبعثون على نياتهم » [٦] .

وقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد سأله عن : الجهاد والغزو : « إن قاتلت صابرًا محتسبًا بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله

---

(١) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطال ٥/ ٢٥، ٢٦، وفتح البارى لابن حجر ٦/ ٣٥ بتصرف .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فيمن يسلم، ويقتل مكانه فى سبيل الله، ٣/ ٤٣ رقم ٢٥٣٧، وعنه نقل الحافظ الذهبى فى : تاريخ الإسلام : قسم المغازى ص ١٨٤، ١٨٥، وأورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ، نقلاً عن ابن حجر فى الإصابة، وقد عزاه ابن حجر بدوره إلى أبى داود ، والحاكم، وعقب عليه بقوله : « هذا إسناد حسن » ١/ ٤٩٥، ٤٩٦ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/ ١٧٥ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤، ٥، ٦) هذه الأحاديث سبق تخريجها فى : المجلد الأول، ص ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٦ .

مرائيًا، مكاثرًا، على أى حال قاتلتَ أو قُتِلت بعثك الله بتلك الحال »[١] ، إلى غير ذلك من النصوص .

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا فوائد، منها :

١ ـ الحرص على معرفة الحق أو الصواب لاسيما فى المسائل الشائكة أو المشكلة بحيث يقع العمل مطابقًا لهذا الحق أو الصواب، وبالتالى يكون القبول وما يتبعه من الأجر والثواب .

٢ ـ أن كلاً من الجهاد للمغنم، والشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب قد يكون مقبولاً محفوفًا بالأجر والثواب، وقد يكون مردودًا مقرونًا بالوزر، والعقاب، والمدار فى ذلك كله على النية، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر .

٣ ـ بلاغته ﷺ وبيانه، حيث ساق الجواب عامًا، وترك للمُخاطب مراجعة نفسه، إن كان يريد الأجر حسَّن النية وجعلها لله، وإن كان يريد غير ذلك دنَّس النية، وجعلها لغير الله .

٤ ـ الراجح أن الجهاد إذا كان لله أصلاً، وأدخل عليه المجاهد بعد ذلك قصد المغنم، فلا ضير لقوله سبحانه : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ...** ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، أما إذا تساويا أو غلب طلب المغنم قصد إعلاء كلمة الله، فهنا يكون الحرج والوقوع فى المحظور، ومثل ذلك يقال فى القتال للحمية، والقتال للغضب .

٥ ـ أن مثل الطرق وأقومها لفقه الكتاب والسنة جمع النصوص ذات الموضوع الواحد، وربطها ببعضها، ومحاولة التأليف بين المتعارضات منها إما بالجمع، وإما بالترجيح، كما فى هذا الحديث، إذ ما كان يمكن فقهه فقهًا دقيقًا سليمًا إلا بسلوك هذه الطريق، وبذلك يقضى على انحراف السلوكيات، وخلل التطبيق .

٦ ـ أنه لا شىء يعدل الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، لما يترتب على إعلاء كلمة الله من نشر الحق والفضيلة، بل وتثبيت دعائمها، وكذلك من محاصرة الباطل والرذيلة، وربما القضاء عليهما، الأمر الذى يأمن معه الناس كل الناس على دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، ومقدساتهم وسائر الحرمات، ويعبد المؤمنون ربهم بحرية،

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول، ص ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٦ .

وراحة بال، فضلاً عن وحدة الصف وجمع الكلمة، والغنى واليسار، وبعبارة أخرى تكون سعادة الدنيا، وفوز الآخرة.

٧ ـ أنه لا يحكم على واحد بعينه أتى عملاً يصلح للدنيا والآخرة : أن عمله مقبول أو غير مقبول، وإنما يفوِّض الأمر فى ذلك إلى الله الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تُخفى الصدور، أو مَن يطلعه الله على ذلك من الأنبياء، والمرسلين، أما الحكم بالقبول، أو الرد على واحد بصفته فجائز بأن نقول : مَن أتى عملاً يريد به الدنيا، فعمله مردود، ومَن أتاه يريد به الآخرة، فعمله مقبول؛ لأن ذلك ليس من قبيل الهجوم أو الجرأة على الغيب .

obeikandl.com

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسيدي، قال: وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ، قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلتُ: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يُذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟»، قلتُ: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة: ساعة، وساعة» (ثلاث مرات).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب التوبة: باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا ٤/٢١٠٦ رقم ١٢ (٢٧٥٠)، فقال: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، وقطن بن نسير (واللفظ ليحيى) قال: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسيدي، وساق الحديث بهذا اللفظ، وقال: حدثني إسحاق بن منصور، قال أخبرنا عبد الصمد، قال سمعت أبي يحدث، قال: حدثنا سعيد الجريري، عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت، فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة، قال: فخرجت، فلقيت أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، نافق حنظلة، فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلتُ مثل ما فعل، فقال: «يا حنظلة:

ساعةٌ وساعةٌ، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تُسلّم عليكم فى الطرق » ، وقال حدثنا زهير بن حرب، قال حدثنا الفضل بن دكين، قال حدثنا سفيان عن سعيد بن الجريرى، عن أبى عثمان النهدى، عن حنظلة التميمى الأسيدى الكاتب، قال : كنا عند النبى ﷺفذكرنا الجنة والنار، فذكر نحو حديثهما .

والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب: منه ٤/ ٥٤٧ رقم ٢٤٥٢ عن عباس العنبرى، عن أبى داود (الطيالسى)، عن عمران القطان عن قتادة عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن حنظلة الأسيدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون كما تكونون عندى لأظلتكم الملائكة بأجنحتها »، وعقّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه، عن حنظلة الأسيدى، عن النبى ﷺ، وفى الباب: عن أبى هريرة » ٤/ ٥٧٤، ٥٧٥ رقم ٢٥١٤ عن بشر بن هلال البصرى،عن هارون بن عبد الله البزاز،عن سيار،كلاهما عن جعفر بن سليمان، عن سعيد الجريرى، عن أبى عثمان النهدى، عن حنظلة، وكان من كتّاب النبى ﷺأنه مرّ بأبى بكر وهو يبكى. . . الحديث، وقال فى آخره: « . . .ولكن: يا حنظلة ساعة، وساعة، وساعة »، ثلاث مرات، بدل مرتين، وعقّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح»، وكتاب صفة الجنة: باب: فى صفة الجنة ونعيمها ٤/ ٥٨٠ رقم ٢٥٢٦ عن أبى كريب، عن محمد بن فضيل، عن حمزة الزيات، عن زياد الطائى، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله : ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلينا، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ: « لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة فى بيوتكم . . . » الحديث، وعقّب عليه بقوله: « هذا حديث ليس إسناده بذاك القوى، وليس هو عندى بمتصل، وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر، عن أبى مدلة، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ» .

وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب: المداومة على العمل ٢/ ١٤١٦ رقم ٤٢٣٩ عن أبى بكر بن أبى شيبة عن الفضل بن دكين، عن سفيان، عن الجريرى، عن أبى عثمان، عن حنظلة الكاتب التميمى الأسيدى، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأى العين، فقمتُ إلى أهلى وولدى، فضحكت، ولعبت، قال : فذكرتُ الذى كنا فيه، فخرجتُ فلقيت أبا بكر، فقلت : نافقت، نافقت، فقال

أبو بكر : إنا لنفعله، فذهب حنظلة فذكره للنبيﷺ ، فقال : « يا حنظلة، لو كنتم كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو على طرقكم، يا حنظلة : ساعة، وساعة ».

وأحمد فى : المسند ١٧٨/٤ بإسناد مسلم الثانى إلى حنظلة، قال : كنا عند رسول اللهﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأنا رأى عين، فأتيتُ أهلى وولدى فضحكت، ولعبت، وذكرت الذى كنا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر، فقلت : نافقت، نافقت، فقال: إنا لنفعله، فأتيتُ النبىﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال : « يا حنظلة، لو كنتم تكونون كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو فى طريقكم، أو كلمة نحو هذا ـ هكذا قال هو ، يعنى : سفيان : يا حنظلة ساعة، وساعة »، ٣٤٦/٤ عن أبى أحمد الزبيرى قال : حدثنا سفيان، عن الجريرى، عن أبى عثمان، عن حنظلة قال: كنا مع رسول اللهﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كأنا رأى عين، فقمتُ إلى أهلى فضحكت ولعبت مع أهلى ، وولدى، فذكرت ما كنت عند رسول اللهﷺ فخرجت، فلقِيت أبا بكر، فقلت : يا أبا بكر : نافق حنظلة، قال : وما ذاك، قلت : كنا عند رسول اللهﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كأنا رأى عين، فذهبتُ إلى أهلى فضحكت ولعبت مع ولدى وأهلى، فقال : إنا لنفعل ذاك، قال : فذهبت إلى النبىﷺ فذكرت ذلك له، فقال: « يا حنظلة، لو كنتم تكونون فى بيوتكم كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة، وأنتم على فرشكم، وبالطرق، يا حنظلة، ساعة، وساعة » .

وبالإسناد الأول عند الترمذى، ولكن بلفظ : قلتُ يا رسول الله : إنا إذا كنا عندك كنا، وإذا فارقناك كنا على غير ذلك، فقال : والذى نفسى بيده لو كنتم تكونون على الحال التى تكونون عندى لصافحتكم الملائكة، ولأظلتكم بأجنحتها » .

وبنظرة خاطفة فى الأسانيد التى روى بها هذا الحديث يظهر أن :

١ ـ الإسناد الأول عند مسلم «صحيح»، وإذا كان فيه: «قطن بن نسير» وهو ـ كما فى التقريب ١٢٦/٢ : « صدوق يخطئ »، فإن ذلك لا يضره ؛ لأن معه يحيى بن يحيى التميمى، وهو ـ كما فى التقريب ٢/ ٣٦٠ : « ثقة ثبت إمام » وإذا كان فيه : «جعفر بن سليمان الضبعى » وهو ـ كما فى التقريب ١٣١/١ : « صدوق زاهد، لكنه كان يتشيع »، فإن ذلك لا يضره ؛ لأن التشيع هنا يُراد به محبة : « على وآل بيته »،

دون الحط على الشيخين أو غيرهما من الصحابة على أنه إذا كان بدعة، فإنها ليست مكفرة يرد بها الحديث، كما أن الحديث ليس دعوة إليها .

وإذا كان فيه : « سعيد بن إياس الجريرى »، وهو كما قال ابن حجر فى: التقريب ١/ ٢٩١ : « ثقة من الخامسة اختلط قبل موته بثلاث سنين »، فإن ذلك لا يضره، إذ يحمل الأمر ـ كما قال أبو عمرو بن الصلاح فيما نقله عنه تلميذه محيى الدين النووى فى مقدمة المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١/ ١٨ ـ على أن الاختلاط طرأ بعد أخذ مسلم عنه .

وكذلك الإسناد الثانى عن مسلم « صحيح »، ووجود سعيد بن إياس الجريرى به لا يضره كما تقدم فى الإسناد الأول .

والإسناد الثالث : « صحيح » أيضًا : وإذا كان فيه سفيان الثورى، وهو كما قال ابن حجر فى التقريب ١/ ٣١١ : « ثقة حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، من رؤوس الطبقة السابعة، وكان ربما دلس »، فإن ذلك لا يضره لأنه كما قال الذهبى فى : ميزان الاعتدال ٢/ ١٦٩ : « كان له نقد وذوق »، يعنى يعى ما يحمل وما يروى ـ ولذا أكمل الذهبى فقال : « ولا عبرة لقول من قال : « يدلس ، ويكتب عن الكذابين » .

وقد جمع مسلم فى سياقه أسانيد هذا الحديث بين العالى منها، وهو الأول، وبين النازل وهو الثانى ، وهو من مفاريده .

٢ ـ الإسناد الأول عند الترمذى فيه : « عمران القطان »، وهو كما فى : التقريب ٢/ ٨٣ : « صدوق يهم ورُمى برأى الخوارج » ، وروى عباس الدورى عن يحيى كما فى الميزان ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧ فقال : كان عمران القطان يرى رأى الخوارج، ولم يكن داعية»، فهو كما قال الترمذى : « حسن غريب من هذا الوجه » .

والإسناد الثانى عند الترمذى أيضًا فيه : « سيار بن حاتم »، وهو كما فى : التقريب ١/ ٣٤٣ : « صدوق له أوهام »، وفيه : « سعيد الجريرى »، وقد تقدم الكلام فيه.

والإسناد الثالث أعله الترمذى نفسه بقوله: « هذا حديث ليس إسناده بذاك القوى، وليس هو عندى بمتصل » ، ولعله يشير بذلك إلى : « زياد الطائى » فإنه كما يقول

ابن حجر فى : التقريب ١/ ٢٧١ : « مجهول، أرسل عن أبى هريرة »، فضلاً عن أن «حمزة الزيَّات » مع كونه صدوقًا ، ربما يهم كما فى : التقريب ١/ ١٩٩، ثم بيّن أن الانقطاع فى هذه الرواية قد وصل بمجىء الحديث بإسناد آخر إلى أبى مدلة مولى عائشة، عن أبى هريرة ، رفعه .

أضواء على حياة الصحابى راوى الحديث :

راوى هذا الحديث هو الصحابى الجليل: حنظلة بن الربيع ينتهى نسبه إلى أسيد بن عمرو بن تميم، فيقال فى نسبه : « الأسيدى، التميمى »، كنيته : أبو ربعى ولقبه : الكاتب، حيث جعله النبىﷺ خليفة كل كاتب من كتابه إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه، فقال له : الزمنى، وأذكرنى بكل شىء أنا فيه، وكان لا يأتى على مال، ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره فلا يبيتﷺ وعنده منه شىء .

ومرّ رسول اللهﷺ يومًا بامرأة مقتولة يوم فتح مكة فقال لحنظلة : الحق خالدًا، وقل له : لا تقتلن ذرية، ولا عسيفًا ـ أى : أجيرًا .

وبعثهﷺ إلى أهل الطائف : أتريدون الصلح أم لا ؟ فلما توجه إليهم قال رسول اللهﷺ : « ائتموا بهذا ، وأشباهه » .

وكتب لأبى بكر الصديق فى خلافته ـ بعد أن التحقﷺ بالرفيق الأعلى ، وشارك خالد بن الوليد حروبه فى العراق .

كما شارك فى معركة القادسية على عند عمر رضي الله عنه ومن مناقبه آنذاك : أنه لما وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعدًا إلى العراق، وكتب إليه أن يسبع القبائل أسباعًا، ويجعل على كل سبع رجلاً، فعل سعد ذلك، وجعل السبع الثالث تميمًا، وأسدًا، وغطفان، وهوازن، وأميرهم حنظلة بن الربيع هذا، بل كان أحد من سير إلى يزدجرد يدعوه إلى الإسلام، نزل الكوفة، وتخلّف عن على يوم الجمل، حيث لم يظهر له مع من يكون الصواب أو الحق ؟ وحين سمع سب عثمان علانية خرج من الكوفة إلى قرقيسياء [1] ،

قرقيسياء : بالفتح ثم السكون : وقاف أخرى، وياء ساكنة، وسين مكسورة، وياء أخرى، وألف ممدودة، بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور فى الفرات فهى فى مثلث بين الخابور والفرات، انظر : معجم البلدان ٤/ ٣٢٨ .

واعتزل فيها قائلاً : « لا أقيم فى بلد يُشتم فيه عثمان »، وظل بها حتى وافته منيته بعد على، وكان كثير التفقد لقلبه، حاضر الدمعة، متهمًا نفسه دومًا بالتقصير، والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن خير شاهد على ذلك .

ومن خلال هذا العرض تبرز عدة حقائق منها :

١ ـ أنه كان عالى الهمة، قوى الإرادة، صادق العزيمة، بدليل هذه المهام الجليلة التى كانت منوطة به، وقام بإنجازها جميعًا دون أن يؤثر عنه فتور أو تقصير .

٢ ـ كما كان ذا عقل ووعى، يفرق بين ما ينبغى أن يدخل فيه، وبين ما ينبغى أن يعتزله .

٣ ـ وأنه كان محل ثقة رسول اللهﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر .

٤ ـ وأن الذى صنع منه جميع ما تقدم إنما هو إيمانه القوى، وإخلاصه وصدقه مع الله، واتباعه للسنّة، مع تفقده لقلبه دومًا واتهامه نفسه بالتقصير، والحرص على الإنابة والتوبة .

هذا، وقد روى عن النبىﷺ ثلاثة أحاديث، أخرج اثنين منها: مسلم والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وروى عنه جماعة منهم : الحسن البصرى، وقيس بن زهير، وابن ابن أخيه المرقع بن صيفى بن رياح، والهيثم بن خنش، ويزيد بن عبد الله بن الشخير، وأبو عثمان النهدى [(١)] .

سبب ورود الحديث :

وسبب ورود الحديث ما جاء مبينًا فيه من اتهام حنظلة لنفسه بالنفاق، وسعيه إلى النبى ليجد عنده المخرج، وحكايته لحاله عند النبىﷺ وفى بيته مع زوجه وأولاده وأمواله، وليس لمعرفة هذا السبب من كبير فائدة فى فقه الحديث، إذ العبرة بعموم

---

(١) انظر : طبقات خليفة ص ٤٣، ١٢٩، العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ٣/٢٩٨، ٤/٢٤٤، ٢٤٥، الثقات لابن حبان ٣/٩٢، تاريخ الصحابة لابن حبان ص ٧٩ ، ترجمة رقم ٣٠٩، الجمع بين رجال الصحيحين ١/ ١١٠، ترجمة رقم ٤٢٥، الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢/٢١٣ باب : ذكر من كان يكتب لرسول اللهﷺ ، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/١٣ ـ ١٥ تهذيب دمشق لابن بدران)، تهذيب الكمال للمزى ٧/٤٣٨، ٤٤٣ ترجمة رقم ١٥٦٠، تاريخ الإسلام للذهبى ص ٤٤، ٤٥ حوادث سنة ٥٠هـ، تخريج الدلالات السمعية لعلى بن محمد المعروف بالخزاعى ص ١٧٨، ١٧٩ .

اللفظ، لا بخصوص السبب، ما لم تقم قرينة تدل على خلاف ذلك، ولا قرينة هنا، غير أنه يكشف عن طيب معدن الصحابة، وكيف كانت قضية الإيمان والقلوب هى الشغل الشاغل لديهم، حتى كانوا يقدمونها على كل شىء فى حياتهم من طعام، وشراب، وزوجة وولد، ومال، وغير ذلك، ويحرصون على السؤال عما يجهلون، موقنين أن شفاء العىِّ السؤال .

معانى المفردات والجُمل :

قوله : « كيف أنت يا حنظلة ؟ » : سؤال عن حاله وصحته، تقديره : فى أى حال أو على أى حالٍ أنت ، وهل أنت صحيح مُعافى ؟ وعليه فكيف : اسم استفهام فى محل رفع خبر مقدم، وأنت مبتدأ مؤخر .

قوله : « قلت : نافق حنظلة » : معناه كما قال ابن علان فى دليل الفالحين ١/ ٤٠١ : « أى خاف على نفسه النفاق لما كان يحصل له من الخوف فى مجلس النبى ﷺ ويظهر عليه فتح كمال المراقبة والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج، واشتغل بما سيأتى [١] ذهب عنه ذلك، وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، وهو نوعان : **أكبر** وهو الذى يكون فى أصل الدين، حيث يكون صاحبه كافرًا فى حقيقة حاله، منتسبًا إلى الإسلام فى ظاهره، **وأصغر**، وهو الذى لا يكون فى أصل الدين ، وإنما يكون فى العمل، وصاحبه لا يكون كافرًا خارجًا عن الإسلام فى حقيقته، بل يكون عاصيًا [٢] وقد تضمنت الأحاديث بعض صفات هذا الصنف من المنافقين، إذ يروى عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر » [٣] .

---

(١) انظر : دليل الفالحين ١/ ٤٠١، نقلاً عن النووى فى : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٥٩٤ بتصرف إذ عبارة النووى : « قوله : [نافق حنظلة] : معناه أنه خاف أنه منافق، حيث كان يحصل له الخوف فى مجلس النبى ﷺ، ويظهر عليه ذلك مع المراقبة، والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة، والأولاد، ومعاش الدنيا، وأصل النفاق : إظهار ما يكتم خلافه من الشر ، فخاف أن يكون ذلك نفاقًا » .

(٢) انظر : فتح البارى ١/ ٨٩ بتصرف : إذ نص عبارته : « والنفاق لغة : مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان فى اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه ».

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: علامة المنافق ١/ ١٥ عن قبيصة بن عقبة، عن سفيان، وقال بعده: «تابعه شعبة عن الأعمش، وكتاب المظالم: باب: إذا خاصم فجر ٣/ ١٧٢ عن =

ويروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان »[1] ، فالمراد بالنفاق هنا نفاق العمل على الراجح

= بشر بن خالد عن محمد بن جعفر (غندر)، عن شعبة، وكتاب الجزية والموادعة : باب: إثم من عاهد ثم غدر ٤/ ١٢٤ عن قتيبة بن سعيد، عن جرير .

ومسلم فى : الصحيح، كتاب الإيمان : باب: بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٦ عن أبى بكر بن أبى شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن عبد الله بن نمير ، وعن زهير بن حرب، عن وكيع عن سفيان أربعتهم [أعنى : سفيان، وشعبة، وجريرًا، وعبد الله بن نمير]، عن الأعمش، عن عبد الله ابن مرة، عن مسروق بن الأجدع، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

وأبو دواد فى : السنن : كتاب السنة : باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصه ٥/ ٦٤ رقم ٤٦٨٨ عن أبى بكر بن أبى شيبة به .

والترمذى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب: فى علامة المنافق ٥/ ٢٠، ٢١ رقم ٢٦٣٢ عن الحسن ابن على الخلال، عن عبد الله بن نمير به، وعن محمود بن غيلان، عن عبيد الله بن موسى عن سفيان به ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

والنسائى فى : السنن : كتاب الإيمان وشرائعه : باب : علامة المنافق ٨/ ١١٦ [المجتبى] ٦/ ٥٣٥ [الكبرى] رقم ١١٧٥١ ،وكتاب السير : باب: الغدر ٥/ ٢٢٤ رقم٨٧٣٤ [الكبرى] عن بشر بن خالد به.

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: علامة المنافق ١/ ١٥، وكتاب الوصايا: باب: قول الله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : ١١] ٤/ ٥، ٦ عن أبى الربيع الزهرانى، وكتاب الشهادات: باب: من أمر بإنجاز الوعد ٣/ ٢٣٦، وكتاب الأدب: باب: قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة : ١٩] ٨/ ٣٠ عن محمد بن سلام، ومسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان : باب: بيان خصال المنافق ١/ ٧٨، ٧٩ رقم ١٠٧ عن يحيى بن أيوب وقتيبة، والترمذى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب: ما جاء فى علامة المنافق ٥/ ٢٠ رقم ٢٦٣١، عن على بن حجر، والنسائى فى : السنن : كتاب الإيمان وشرائعه: باب : علامة المنافق ٨/ ١١٦، ١١٧ عن على بن حجر خمستهم [أعنى: أبا الربيع الزهرانى، ومحمد بن سلام، ويحيى بن أيوب، وقتيبة، وعلى بن حجر] عن إسماعيل بن جعفر، عن أبى سهيل نافع بن مالك، عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعًا به، وعقّب الترمذى على حديثه بقوله : «هذا حديث صحيح، وأبو سهيل هو عم مالك بن أنس، واسمه: نافع بن مالك بن أبى عامر الأصبحى الخولانى ».

ومسلم فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب: بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٩ عن عقبة بن مكرم العمى، والترمذى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: ما جاء فى علامة المنافق ٥/ ٢٠ رقم ٢٦٣١ عن عمرو بن على، كلاهما عن يحيى بن محمد بن قيس أبو زكير، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعًا به، غير أن مسلمًا زاد فى روايته قوله : « وإن صام، وصلى، وزعم أنه مسلم »، وعقّب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن غريب من حديث العلاء، وقد رُوى من غير وجه، عن أبى هريرة : عن النبى ﷺ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٨ عن أبى بكر محمد بن إسحاق الصغانى، عن سعيد بن أبى مريم، عن محمد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعًا بلفظ: « من علامات المنافق ثلاثة ... » الحديث، رقم ١١٠ عن أبى نصر التمار، وعبد الأعلى بن حماد، كلاهما عن حماد بن سلمة، عن داود ابن أبى هند عن سعيد بن المسيب، وعن أبى هريرة مرفوعًا بمثل حديث يحيى بن محمد عن العلاء أى ذكر فيه : « وإن صام، وصلى، وزعم أنه مسلم » .

بدليل قوله فى الحديث الأول : « كان منافقًا خالصًا » [١] .

وتدور هذه المادة على (النون، والفاء، والقاف) ولذلك معانٍ منها :

١ ـ الرواج والربح، نقول : نفق البيع نفاقًا كسحاب : راج، وربح .

٢ ـ الموت والفناء والنفاد، أو القلة، تقول : نفق الرجل، والدابة نفوقًا : ماتا، ونفق الجرح : تقشر، ونفق الزاد، ونفق كفرح، ونصر : نفد، وفنى، أو قل .

٣ ـ كتمان شىء وإظهار غيره، تقول : نفق، ونافق فى الدين: ستر كفره، وأظهر إيمانه، ومنه النافقاء، والنفقة كهمزة إحدى جحرة اليربوع يكتمها، ويظهر غيرها، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق [٢] .

والعلاقة بين المعانى اللغوية، والمعنى الاصطلاحى أو الشرعى بينة واضحة إذ المنافق يسلك طريق الالتواء ظانا أن ذلك يقيه الفضيحة والمؤاخذة ويحقق له الربح والمصلحة والحقيقة أنه لا يظفر بشىء لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة .

إذ المؤمنون يعرفونه فى الدنيا بسمته، ومن خلال لحنه فى القول كما قال الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴾ [محمد : ٣٠]، ولذلك يحذرونه .

وأما فى الآخرة فعقابه ما أخبر عنه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء ١٤٥] .

وقد جمع الله سوء مقصدهم هذا وسوء عاقبتهم فى الدنيا والآخرة بسببه فقال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة : ٩] ، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ونقل الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى عن ابن الأعرابى قوله : «وفى الاعتدال [٣] لتسمية المنافق منافقًا ثلاثة أوجه : أحدها : أنه يُسِرُّ كفره ويخفيه،

---

[١] انظر : فتح البارى ١/ ٨٨، وفيه التوفيق بين العلامات الثلاث والأربع .

[٢] انظر : القاموس المحيط ٣/ ١٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٤٢، وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين فى التاريخ ١/ ٥٢، ٥٣ بتصرف .

[٣] هكذا فى الأصل ، ولعل صوابها : « الاعتلال » بمعنى العلة، إذ هذا هو المناسب للسياق، والله أعلم.

فشبه بالذى يدخل النفق، وهو السِّرب يستتر فيه ، **والثانى** : أنه نافق كاليربوع، وذلك أن اليربوع له جحران أحدهما يقال له : النافقاء، والآخر : القاصعاء، فإذا طُلِب من النافقاء خرج من القاصعاء، **والثالث** : أنه شبه به لمخادعته، وذلك أن اليربوع يحتفر الأرض من تحتها حتى يرقها جدًا، فإذا طُلب من باب: جُحره عمد إلى ذلك الموضع الذى رقق ترابه بحفره، ودفعه برأسه خارجًا، فظاهر جُحْره أرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق، ظاهره مؤمن، وباطنه كافر » (١) .

وتبعًا لما تقدم عن النفاق يظهر أن نسبة حنظلة النفاق إلى نفسه وموافقة الصديق له إنما هى من قبيل الخوف، والإشفاق على أنفسهما أن تكون الغفلة عن ذكر الله، والدار الآخرة، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائب النفاق(٢) .

« **سبحان الله : ما تقول ؟** » : تنزيهًا لله، وقد قالها الصدِّيق تعجبًا مما قال، حيث خفى عليه سبب ذلك ، كأنه يقول : إنى لضعفى وقصورى البشرى خفى علىَّ سبب ما قلت، أما الذى لا يخفى عليه ذلك ولا غيره فإنما هو الحق تبارك وتعالى، المُنزَّه عن كل نقص ، والموصوف بكل كمال ، وهكذا كان يذكر النبى ﷺ ربه بذلك حين يقع ما يدعو إلى الاستغراب والتعجب .

« **ما تقول ؟** » : معناه : ما الذى تقول، أى : تأمله، وانظر فيه جيدًا .

« **كأنا رأى عين** » : يعنى كأنا نراها رأى عين وهو منصوب على أن مصدر مفعول مطلق لفعل محذوف، والجملة فى محل رفع خبر كأن، ويجوز الرفع على أنه خبر كأن، قال القاضى عياض (٣) : « ضبطناه بالرفع أى: كأنا ذوو رأى عين، أى بحال من يراهما » .

« **عافسنا الأزواج والأولاد** » : عالجنا، ومارسنا، ولاعبنا »، إذ المعافسة : المعالجة، والممارسة، والملاعبة (٤) ، قال النووى : « وروى الخطابى هذا الحرف [عانسنا]

---

(١) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠ .

(٢) انظر : ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين فى التاريخ ١/ ٨٠ .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووى ٥/ ٥٩٣، ودليل الفالحين لابن علان ١/ ٤٠١ بتصرف .

(٤) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١١٠ .

بالنون، قال : ومعناه لاعبنا »، ورواه ابن قتيبة بالشين المعجمة، قال ومعناه : عانقنا، والأول هو المعروف، وهو أعمُّ[١] .

« **والضيعات** » : جمع ضيعة، وهى معاش الرجل من مال، أو حرفة : تجارة أو صناعة، أو زراعة ونحوها[٢] .

« **فنسينا كثيراً** » : قال ابن علان : « أى: إذا خرجنا واشتغلنا بهذه الأمور، وذهب منا ذلك الحال الذى كان ونحن عند النبىﷺ وسماع موعظته ومشاهدته »[٣] .

« **فوالله لنلقى مثل هذا** » : قائل هذه الجملة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومراده بذلك أنه يقع له مثل ما يقع لحنظلة، ولئن كان هذا نفاقًا فهو منافق .

« **وما ذاك ؟** » : أى : ما الذى نافق به ؟ يعنى : اذكر السبب الذى من أجله قلت عن نفسك إنك منافق، وقائل هذه الجملة : إنما هو النبىﷺ .

« **والذى نفسى بيده** » : هذه صيغة قسمهﷺ فى كثير من أحايينه، ومعناها : أحلف بالله الذى ناصيتى وروحى بيده، يقدر أن يُخرسنى ويقبضنى توًا إن أنا افتريت على الله الكذب فأخبرتكم بما لا يصح، وبما لا يرضاه، والمقصود من هذه الجملة تطمين وتثبيت حنظلة ومعه الصديق ومن على شاكلتهما أن ما يلقى عليهم حق وصدق، إذ هو معصوم لا ينطق عن الهوى .

« **لو تدومون على ما تكونون عليه عندى** » : من المراقبة، والتفكير فى المآل، والإقبال على الله تعالى .

« **وفى الذكر** » : هكذا بالعطف، وهو يشعر : أن مصافحة الملائكة لهم على الفرش، وفى الطرقات مرهونة بأمرين : الاستمرار على الحال التى يكونون عليها عند النبىﷺ والمواظبة على الذكر .

قال القرطبى : « هكذا صحت الرواية بالواو العاطفة للظرف الثانى على الظرف الأول، فيفيد أن مصافحة الملائكة فى قوله : « لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم » موقوفة على حصول حالتين لنا .

---

(١) انظر : المنهاج ٥/ ٥٩٣ .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٢٩ .

(٣) انظر : دليل الفالحين ١/ ٤٠١ .

على حال مشاهدة الجنة والنار مع ذكر الله تعالى، ودوام ذلك، فيعنى ـ والله أعلم ـ أن التمكن هو أن يشاهد الأمور كلها بالله، فإذا شاهد الجنة لم يحجبه ما شاهد من نعيمها، وحسنها عن رؤية الله تعالى، ومحل رؤيته، ومشاهدته، فيكون فرقه فى جمعه، وعطاؤه فى منعه، ومن كان هكذا ناسب الملائكة فى معرفتها، فبادرت إلى إكرامه ومشافهته، وإعظامه، ومصافحته »[1].

« ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » : النصب على أنه مفعول فيه لفعل محذوف، والتقدير : تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على أنه : مبتدأ وخبره محذوف مقدم عليه لكونه نكرة، تقديره : لنا ساعةٌ : ولله ساعة .

قال أبو البقاء العكبرى : « يجوز النصب على معنى : تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على تقدير : لنا ساعة، ولله ساعة »[2].

والساعة تطلق على معان عدة، منها :

أ ـ الجزء من أجزاء الوقت والحين، وإن قل .

ب ـ الجزء من أربعة وعشرين جزءًا من الليل والنهار .

جـ ـ القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم: ١٤].

د ـ الآلة يعرف بها الوقت بالساعات، والدقائق والثوانى شمسية، أو رملية، أو مائية، أو إلكترونية[3] ونحوها والمراد بها فى الحديث : المعنى الأول يعنى : البرهة أو الجزء من أجزاء الوقت، والحين، وإن قل .

المعنى العام أو الإجمالى للحديث :

يشعر المرء من نفسه : أن تعتريه فترات يقوى إيمانه فيها، وتزكو نفسه وتشرق حتى لكأنه ملك من الملائكة يتحرك ويعيش على ظهر هذه الأرض فى صورة بشر، كما تعتريه فترات أخرى يضعف إيمانه، وينكر نفسه، ويضيق صدره حتى لكأن نفسه ليست هى النفس التى عرف، وقلبه ليس هو القلب الذى ألف .

والمطلوب منه فى الحالين : حال قوة الإيمان والنشاط والهمة، وحال ضعف

---

[1] انظر : دليل الفالحين ١/ ٤٠٢، ٤٠٣.

[2] انظر : إعراب الحديث النبوى، ص ١٧٥، حديث رقم ١٥٦.

[3] انظر : القاموس المحيط ٣/ ٦٠، الصحاح فى اللغة والعلوم، ص ٥١٨، والمعجم الوسيط : ١/ ٤٦٣.

الإيمان، والركون والعجز : أن يفتش باحثًا عن السبب، ثم يستثمر هذا السبب فى تنمية الإيمان وتقويته، أو فى مقاومة هذا الضعف، ونبذه، والقضاء عليه .

والحديث الذى نحن بصدد بيانه والكلام عليه الآن يحمل صورة عملية دقيقة لما نقول: إذ فيه يلقى الصدِّيق الصحابى الجليل : حنظلة بن الربيع الكاتب الأسيدى، فيسأله عن حاله، وعن صحبته، فيجيبه أنه صار منافقًا، ويعجب الصدِّيق من جوابه هذا، ويسأله عن سبب اتهامه نفسه بالنفاق، وهو يعرف منه فى الظاهر خلاف ذلك يجيب : إنه حين يكون بين يدى النبى ﷺ وهو يذكرهم يقوى إيمانه، ويعظم يقينه، وتصدق لديه المراقبة ، حتى لكأن الجنة والنار قد مثلتا أمامه، وصارتا حاضرتين كأنه يراهما رأى العين، ولكنه بعد أن يقوم من مجلس النبى ﷺ ويعود إلى بيته، ويشتغل بمداعبة أهله، وملاعبة أولاده، ومعالجة أمواله، ودنياه يضعف لديه ما كان يجد عند النبى ﷺ ، وهنا شاركه الصدِّيق شعوره وأحاسيسه، فقال: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

يعنى : لست أنت وحدك الذى تجد فى نفسك هذا الشعور، وتلك الأحاسيس وإنما أنا وغيرى نشعر بما تشعر به، ونحس بما تحس به، وحينئذ لم يعد أمامهم من يستفتونه، ويرشدهم فى حالهم هذه غير رسول الله ﷺ ، فانطلقا إليه حتى دخلا عليه وهنا شكى حنظلة حاله للنبى ﷺ ، والصدِّيق واقف متغير منصت ينطلق لسانه حاله بمشاركة حنظلة فى كل ما يقول .

وحين انتهى حنظلة من عرض شكواه ، تلك التى يشاركه فيها الصدِّيق وآخرون كثيرون، أفهمه النبى ﷺ أنه لو بقى ومن على شاكلته على الحال التى يكونون عليها عنده، وفى ساعات الذكر لفرحت بهم الملائكة، أعظم الفرح، ولترجمت هذا الفرح بالتسليم عليهم، والمصافحة لهم، وهم على فرشهم، وفى خادع النوم، بل وهم فى الشوارع والطرقات، ولكن ذلك يقتضى الانقطاع عن معالجة الحياة الدنيا بما فيها من النساء والبنين، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، والانقطاع بدوره يؤدى إلى تعطيل دولاب الحياة، وإهدار الإنسان لدوره ورسالته التى خلقه الله لها فى هذه الأرض حيث يقول سبحانه : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...**﴾ [هود: ٦١]، ويقول: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ ...**﴾ [فاطر: ٣٩].

ولابد إذن من الاعتدال والتوسط فى الأمر، فلا ننقطع للذكر، والتفكر، وتضيع دنيانا، ولا نشتغل بالدنيا مضيعين للذكر والتفكر، وإنما نسلك سبيلاً وسطًا، فساعة

للذكر والتفكر، وأخرى للدنيا بما فيها من الأهل والأولاد، والحرف، ومعاناة الحياة، شريطة أن تكون هذه الساعة الأخيرة بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، قائلاً : «والذى نفسى بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة »، مؤكدًا ما قال وما أشار به بتكراره ثلاث مرات، وهكذا لم يخرج ﷺ فيما أشار عليهم، وأفتاهم به عن النهج الذى رسمه له ربه فى قوله : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ... ﴾ [القصص : ٧٧] .

والذى نطق هو ﷺ به صراحة فى قوله : « إن لكل شىء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه » (١) .

وفى رواية ثانية : « فإن لكل عابد شرة ، ولكل شرة فترة ، فإما إلى سُنة ، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سُنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك، فقد هلك » (٢) .

وفى رواية ثالثة : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجال ينصبون فى العبادة من أصحابه نصبًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: « تلك ضراوة (٣) الإسلام وشرته (٤) ولك ضراوة

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة ٤/٥٤٨ رقم ٢٤٥٣ عن يوسف بن سليمان أبو عمر البصرى، عن حاتم بن إسماعيل عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعًا به، وعقّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه »، وقد رُوى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع فى دين أو دنيا إلا من عصمه الله » .

(٢) الحديث جزء من حديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/١٥٨ من حديث عبد الله بن عمرو قال : زوجنى أبى امرأة من قريش، فلما دخلت علىَّ جعلت لا أنحاش لها مما بى من القوة على العبادة من الصوم، والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كنته فدخل عليها، فقال لها : كيف بعلك ؟ فقالت : خير الرجال أو كخير البعولة من رجل، لم يفتش لنا كنفًا، ولم يعرف لنا فراشًا، فأقبل علىَّ فعذمنى، وعضَّنى بلسانه، فقال: أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها، وفعلت وفعلت، ثم انطلق إلى النبى ﷺ فشكانى ، فأرسل إلىَّ النبى ﷺ فأتيته، فقال : « أتصوم النهار ؟ » قلت : نعم، قال : « وتقوم الليل؟» قلت : نعم، قال : « لكنى أصوم وأفطر، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى ... » الحديث .

(٣) ضراوة الإسلام : عادةٌ ولهجًا به لا يصبر عنه، أخذًا من قولهم ضرى بالشىء، بفتح الضاد، والراء المخففة المكسورة : ضرى، وضراوةً إذا اعتاده، ولزمه، وأولع به، كما يضرى السبع بالصيد وهو من باب: تعب، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/١٨ .

(٤) شِرَّة الإسلام : نشاطه والرغبة فيه، وهى بكسر الشين المعجمة، وتشديد الراء المفتوحة، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٢١٢ .

شرة، ولكل شرة فترة [١] ، فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنة فلأم [٢] ما هو ، ومن من كانت فترته إلى معاصى الله، فذلك هو الهالك » [٣] .

الأحاديث الأخرى الواردة فى معنى الحديث غير ما تقدم :

هذه وقد حفلت دواوين الحديث المشهورة ببعض الأحاديث الأخرى الواردة فى معنى الحديث غير ما سبق فى المعنى الإجمالى ، ومنها :

حديث أنس رضي الله عنه قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : إنا إذا كنا عند النبى ﷺ رأينا فى أنفسنا ما نحب، فإذا رجعنا إلى أهلنا وخالطناهم، أنكرنا نفوسنا، فذكروا ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « لو تدومون على ما تكونون عندى فى الخلاء لصافحتكم الملائكة بأجنحتها، ولكن ساعة ، وساعة » [٤] .

وفى رواية : « لصافحتكم الملائكة حتى تظلكم بأجنحتها عيانًا » [٥] .

وحديث أنس أيضًا : « قال: غدا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله: هلكنا ورب الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ »، قالوا : النفاق، النفاق، قال : « ألستم تشهدون ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ؟ »، قالوا : بلى، قال : « ليس ذاك النفاق »، قال : ثم عادوا الثانية، فقالوا : يا رسول الله :

---

(١) الفترة تطلق على معنيين : ما بين الرسولين من رسل الله من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة، وأيضًا: الضعف والانكسار، أو اللين بعد الشدة، والسكون بعد الحدة، والأول هو المراد هنا بدلالة السياق، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ١٨٢ .

(٢) لأم ما هو : بكسر اللام، وفتح الهمزة، وتشديد الميم المكسورة سنونة: أى: قصد الطريق المستقيم، يقال: أمه يؤمه أمًا، وتأمه، وتيممه، قصده، ويحتمل أن يكون الأم أقيم مقام المأموم أى: هو على طريق ينبغى أن يقصد، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ٤٣ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/ ١٦٥، من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه الساعاتى فى : بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ١٩/ ١٢ بقوله : « الحديث سنده صحيح ، أورده الهيثمى، وقال : رواه الطبرانى فى : الكبير بنحوه، ورجال أحمد ثقات، وقد قال ابن إسحاق : حدثنى أبو الزبير، فذهب التدليس، ومعنى ذلك أن ابن إسحاق روى هذا الحديث مرتين، فقال : فى إحداهما حدثنى أبو الزبير ـ وهى الرواية الصحيحة التى أثبتناها فى : المتن ، وقال فى الثانية : عن أبى الزبير لم يصرح بالتحديث فى هذه المرة، وهى التى أثبتنا سندها فى الشرح، وابن إسحاق ثقة مدلس، فإذا عنعن لا يحتج بحديثه، وإذا صرح بالتحديث فحديثه يحتج به، والله أعلم » .

(٤) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب: ساعة وساعة ١٠/ ٣٠٨، وعزاه إلى البزار قائلاً : « رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير زهير بن محمد الرازى، وهو ثقة » .

(٥) الحديث أخرجه أبو يعلى فى: المسند ٥/ ٣٠٣٥، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب : ساعة ، وساعة ١٠/ ٣٠٨ ، وعزاه إلى أبى يعلى بلفظه ، والبزار بغير الزيادة الأخيرة التى عند أبى يعلى .

هلكنا وربك الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ »، قالوا : النفاق، النفاق، قال : « ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ »، قالوا : بلى ، قال : « ليس ذاك النفاق »، ثم عادوا الثالثة، فقالوا : يا رسول الله : هلكنا ورب الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ » ، قالوا : النفاق، قال : « ألستم تشهدون ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ »، قالوا : بلى ، قال : « ليس ذاك النفاق » ، قالوا : إنا إذا كنا عندك كنا على حال، وإذا خرجنا من عندك، همتنا الدنيا وأهلونا، قال : « لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال التى تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة »[١] .

وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : ماهية العبادة ومضمونها، وأقسامها، وفضلها :

تُطلق العبادة لغة على معانٍ : أهمها :

١ ـ التذلل والخضوع، نقول : طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام .

٢ ـ الطاعة، نقول : عَبَدَ الله عبادةً : أطاعه[٢] .

ولا تعارض بين المعنيين : إذ الطاعة الحقة منشؤها التذلل والخضوع، كما أن صدق التذلل والخضوع يقود إلى كمال الطاعة .

وقد فرَّق الشيخ أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحلبى بين العبودية والعبادة بقوله : « والعبودية : إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل، ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالبارى تعالى »[٣] .

شرعًا : أما العبادة فى لسان الشرع فهى ـ كما عرّفها ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة »[٤] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو يعلى فى : المسند ٦/ ٥٨ رقم ٣٣٠٤، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب : علامة البراءة من النفاقة ١٠/ ٣١٠، وعزاه إلى أبى يعلى قائلاً : « رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير غسان بن برزين، وهو ثقة » .

(٢) انظر : القاموس المحيط ١/ ٥٩٦ مادة (عبد) بتصرف ، الصحاح فى اللغة والعلوم لنديم واسامة المرعشليين ص ٧٠٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٧٩، ٥٨٠ .

(٣) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٢٧ .

(٤) انظر : العبادة فى الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى، ص ٣١، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية.

ومضمون ومحتوى العبادة : شعب الإيمان البضع والستون أو البضع والسبعون التى جاء بها حديث أبى هريرة مرفوعًا : « الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان »[١] .

وفى رواية : « الإيمان بضع وسبعون : أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان »[٢] .

وقد عدد ابن تيمية طرقًا منها فقال: « فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عبادة، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والخادم، والرحمة بالضعيف، والرفق بالحيوان عبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء فى رحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة، بل الدين كله داخل فى معنى العبادة، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: أدنته فدان أى : أذللته فذل، ويقال: يدين الله، ويدين لله، أى : يعبد الله ويطيعه، ويخضع له، فدين الله عبادته، وطاعته، والخضوع له، والعبادة : أصل معناها : الذل أيضًا، يقال : طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطأته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها، تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهى تتضمن غاية

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : أمور الإيمان بهذا اللفظ على سبيل الجزم ١/ ٩.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ١/ ٦٣ رقم (٥٧) بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان » ، ورقم (٥٨) بلفظ: « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب: فى رد الإرجاء ٥/ ٥٥، ٥٦ رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال : « الأذى » بـ « العظم »، والترمذى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب: ما جاء فى استكمال الإيمان وزيادته ونقصه ٥/ ١٢ رقم ٢٦١٤ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون بابًا أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول : لا إله إلا الله »، وعقَّب عليه بقوله: هذا حديث حسن صحيح» وهكذا روى سهيل بن أبى صالح عن عبد الله بن دينار، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، وروى عمارة بن غَزِيّة هذا الحديث، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «الإيمان أربعة وستون بابًا، قال : حدثنا بذلك قتيبة عن بكر بن مضر، عن عمارة بن غَزِيّة به»، والنسائى فى: السنن: كتاب الإيمان : باب: ذكر شعب الإيمان ٨/ ١١٠، كرواية مسلم الأولى، وكرواية أبى داود [المجتبى]، ٦/ ٥٣٢ رقم ١١٧٣٥، ١١٧٣٦ [السنن الكبرى]، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب: فى الإيمان ١/ ٢٢ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

الذل لله، بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ومن أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أعظم عنده من كل شىء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله، فتعظيمه باطل »(١) .

وخير دليل على صحة هذا المضمون، وذلك المحتوى : كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبىﷺ ، إذ فى القرآن أن الهدف من خلق الإنس والجن : العبادة ، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)** ﴾ [الذاريات] .

وفى السُّنة أن حق الله على العباد : العبادة القائمة على التوحيد ونبذ الشرك، إذ يقول النبىﷺ لمعاذ ـ وقد كان رديفه على دابة : « يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم، قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . . . » الحديث(٢) .

ثم يسوق الحق فى كتابه وعلى لسان نبيه شعب الإيمان شعبة شعبة، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على دخول هذه الشعب، وما فى معناها من كل خير ، وبر ومعروف مما لا يتعارض مع الكتاب والسنة فى مضمون، ومحتوى العبادة، حتى المتاع الجنسى الغليظ، إذ يقولﷺ : « . . . وفى بضع أحدكم صدقة » ، قالوا : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام،

---

(١) انظر : العبادة فى الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى، ص ٣١، ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب: اسم الفرس والحمار ٤/ ٣٥ وكتاب اللباس : باب: إرداف الرجل خلف الرجل ٧/ ٢١٨، وكتاب الاستئذان : باب: من أجاب بلبيك وسعديك ٨/ ٧٤، وكتاب الرقاق : باب: من جاهد نفسه فى طاعة الله ٨/ ١٣٠، ١٣١، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا ١/ ٥٨، ٥٩، رقم ٤٨ ـ ٥١، والترمذى فى: السنن : كتاب الإيمان : باب: ما جاء فى افتراق هذه الأمة ٥/ ٢٦، ٢٧، رقم ٢٦٤٣، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٢/ ١٤٣٥، ١٤٣٦ رقم ٤٢٩٦، كلهم من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا ، وعقّب الترمذى على روايته بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، ورُوى من غير وجه عن معاذ بن جبل » .

أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » (١) .

بل حتى النفقة على الأولاد، ومداعبة الأهل، ومعالجة الحرف والصناعات، إذ يقول ﷺ : « . . . ولستَ تُنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة تجعلها فى فىّ امرأتك » (٢) .

ويقول ﷺ : « إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، ومنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إلىَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه، ونبله، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها » (٣) .

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/ ٦٩٧، ٦٩٨ رقم ١٠٠٦، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب: صلاة الضحى ٢/ ٢٦، ٢٧، رقم ١٢٨٥، وكتاب الأدب : باب: فى إماطة الأذى عن الطريق ٤/ ٣٦٢ رقم ٥٢٤٣، وأحمد فى : المسند ٥/ ١٦٧، ١٦٨، كلهم من حديث أبى ذر ﷺ مرفوعًا به، وبنحوه، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوصايا : باب: أن يترك ورثته أغنياء خيرٌ من أن يتكففوا الناس ٤/ ٣، وكتاب مناقب الأنصار : باب: قول النبى ﷺ : « اللهم امض لأصحابى هجرتهم، ٥/ ٨٧، ٨٨، وكتاب المغازى : باب: حجة الوداع ٥/ ٢٢٥، وكتاب النفقات : باب: فضل النفقة على الأهل ٧/ ٨٠، ٨١، وكتاب الفرائض : باب: ميراث البنات ٨/ ١٨٧، ١٨٨، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الوصية : باب: الوصية بالثلث ٣/ ١٢٥٠، ١٢٥٣ رقم ٥ ـ ٧، وأبو داود فى : السنن: كتاب الوصايا: باب: ما جاء فيما لا يجوز للموصى من ماله ٣/ ١١٢، ١١٣ رقم ٢٨٦٤، والترمذى فى: السنن: كتاب الوصايا : باب: ما جاء فى الوصية بالثلث ٤/ ٤٣٠، ٤٣١، رقم ٢١١٦، وقال عقبيه : «وفى الباب: عن ابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح . . . »، وأحمد فى : المسند : ١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، كلهم من حديث سعد بن أبى وقاص ﷺ مرفوعًا به، وبنحوه ، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فى الرمى ٣/ ٢٨، ٢٩ رقم ٢٥١٣، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله ٣/ ١٤٩ رقم ١٦٣٧، وعقب عليه بقوله : « وفى الباب: عن كعب بن مرة، وعمرو بن عبسة، وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى: السنن: كتاب الخيل: باب: تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢، ٢٢٣ [المجتبى] ، ٣/ ٣٩، ٤٠ رقم ٤٤٢٠ رقم ٢٨١١، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٤٦، والحاكم فى: المستدرك : كتاب الجهاد : باب: من علم الرمى ثم تركه فهى نعمة كفرها ٢/ ٩٥، كلهم من حديث عقبة ابن عامر مرفوعًا به، وبنحوه، وعقّب الحاكم بقوله : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وأقره على ذلك الذهبى فى : التلخيص ، وساق الحاكم له شاهدًا من حديث أبى هريرة مرفوعًا : « كل شىء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة : انتضالك بقوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك أهلك، فإنها من الحق، وقال : انتضلوا واركبوا، وأن تنتضلوا أحب إلىَّ، إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فيه الخير، والمنتبل، والرامى به »، وقال: « صحيح على شرط مسلم »، ولم يوافقه الذهبى على ذلك ، إذ قال فى : التلخيص : « قلت : كذا قال : وسويد ـ يقصد ابن عبد العزيز ـ أحد رجال الإسناد ـ متروك » .

إلى غير ذلك مما أثر عنه ﷺ فى كل شؤون الحياة الدنيا والآخرة، وعلى هذا الفهم مضى سلوك المسلمين من عصر الصحابة إلى عصور الضعف، والانحلال، والانحطاط.

وغاية ما فى الأمر أن العبادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: عبادة مخصوصة أو مقيدة، حددها الشارع وبيَّنها، فليس لنا أن نزيد فيها، أو ننقص منها، وهى التى لا تصح العبودية إلا بها مثل العقائد، والصلوات، والزكوات، والصيام، والحج، ونحوها، وهذا النوع من العبادة لا يُقبل إلا إذا تحقق فيه شرطان: الإخلاص لله، واتباع السنة، حيث يقول سبحانه: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)** ﴾ [الكهف].

ويقول ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١).

ويقول ﷺ أيضًا: « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: باب: كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/١، وكتاب العتق: باب: الخطأ والنسيان فى العتاقة، والطلاق، ونحوه ٣/١٩١، وكتاب مناقب الأنصار: باب: هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٥/٧٢، وكتاب النكاح: باب: من هاجر أو عمل خيرًا لتزويج امرأة فله ما نوى ٧/٤ وكتاب الطلاق: باب: الطلاق فى الإغلاق والكره [الترجمة] ٧/٥٨، وكتاب الأيمان: باب: النية فى الأيمان ٨/١٧٥، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٩/٢٥ وكتاب الحيل باب: فى ترك الحيل ٩/٢٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» ٢/١٥٧، ١٥٨، وأبو داود فى: السنن: كتاب الطلاق: باب: فيما عنى به الطلاق والديات ٢/٥١٠، والترمذى فى: السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب: ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا ٤/١٧٩، ١٨٠، وقال: « هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى: السنن: كتاب الطهارة: باب: النية فى الوضوء ١/٥١، وكتاب الطلاق: باب: الكلام إذا قصد به النية فى اليمين ٧/١٢، ١٣، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب: النية ٢/١٤١٣ رقم ٤٢٢٧، وأحمد فى: المسند: ١/٢٥، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الصلح: باب: إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود ٣/٢٤١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الأقضية: باب: نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ٣/١٣٤٣، ١٣٤٤ رقم ١٧١٨ (١٧، ١٨)، وأبو داود فى: السنن: كتاب السنة: باب: فى لزوم السنة ٥/١٢ رقم ٤٦٠٦، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ١/٧ رقم ١٤، وأحمد فى: المسند ٦/٢٧٠ كلهم من حديث عائشة مرفوعًا به، وزاد مسلم فى روايته الثانية أن سعد بن إبراهيم قال: سألت القاسم بن محمد: عن رجل له ثلاثة مساكن فأوصى بثلث كل مسكن منها، قال: يجمع ذلك كله فى مسكن واحد، ثم قال: أخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

الثانى : عبادة عامة مطلقة، لم يتدخل الشارع فيها إلا بوضع شروط وضوابط لها، وهى التى لا تسود الأمة، ولا تقر إلا بها من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحرف، والصناعات، ونحوها، وهذه الضوابط، وتلك الشروط : أن يقصد بها وجه الله ومرضاته، وألا تتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله نصًا أو استنباطًا، وأن يكون من ورائها منفعة أو مصلحة تعود على الفرد والجماعة (١) .

والذين فهموا العبادة بهذا المفهوم الواسع العميق يختلفون فى أفضلها على طوائف :

الطائفة الأولى : ترى أن أفضل العبادة ما كان شاقًا وصعبًا على النفوس قائلة : إن هذا دليلاً على أن المرء قد تمكن من رياضة نفسه بحيث خالف هواها وحملها على الشاق الصعب الذى تكره، والأجر على قدر المشقة والتعب .

الطائفة الثانية : ترى أن أفضل العبادة : التجرد والزهد فى الدنيا، والتقلل منها قدر الإمكان على اعتبار أنها إلى زوال، والعاقل من تقلل منها قانعًا بالكفاف، وهذه الطائفة ما بين ملتزم بذلك جامع لهمته عليه، مفرغ القلب من كل ما سوى الله والدار الآخرة، وما بين عامل به، داع الناس إليه .

الطائفة الثالثة : ترى أن أفضل العبادة : ما كان متعديًا إلى الغير من إعانة هذا الغير بالنفس والمال، وبذل النصيحة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مستندة إلى قوله ﷺ لعلى يوم خيبر : « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمُر النعم » (٢) ، وقوله ﷺ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » (٣) ، وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا

---

(١) انظر : العبادة فى الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى، ص ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية بتصرف كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب: دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٤/٥٧، ٥٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة ، باب: من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه ٤/١٨٧١ ـ ١٨٧٣ رقم ٣٣ ـ ٣٥ ، والترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب : مناقب على بن أبى طالب ٥/٦٣٨ رقم ٣٧٢٤ كلهم من حديث سهل مرفوعًا بنحوه، وبمثله .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ٣/١٥٠٦ رقم ١٣٣ (١٨٩٣)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب: باب: فى الدال على الخير ٤/٣٣٣ رقم ٥١٣٩، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم، باب: ما جاء فى الدال على الخير كفاعله ٤/٤١، ٤٢ رقم ٢٦٧١ كلهم من حديث أبى مسعود البدرى رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الترمذى عقيب حديثه : «هذا حديث حسن صحيح » ، وللحديث روايات أخرى مقرونة بسبب الورود عند مسلم .

ينقص ذلك من أجورهم شيئًا »[١] ، وأن ذلك الخير يستمر حتى إلى ما بعد الموت لحديث : « إذا مات ابن الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[٢] .

الطائفة الرابعة : ترى أن أفضل العبادة : الحرص على مرضاة الله فى كل وقت، وفى كل مكان بما يناسب هذا الوقت، وذلك المكان، فإذا دخل العدو بلاد المسلمين، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وانتهك الأعراض، وداس الحرمات والمقدسات، فعبادة الوقت الجهاد، وإن ترتب على ذلك ضياع صلاة ليل، وصيام نهار تطوعًا، وإذا حضرت الصلاة والحال حال أمن وسلام، فعبادة الوقت إجابة النداء وأداء الصلاة.

وإذا جاء ضيف فعبادة الوقت إكرامه والحفاوة به وهلم جرا، ورأى هذه الطائفة الأخيرة هو الراجح وهو الأولى بالقبول، إذ هو الموافق لهديه ﷺ حيث كان يعطى كل وقت وكل ظرف المناسب من العبادة .

يقول ابن القيم بعد سرده لآراء هذه الطوائف جميعًا وأدلة كل فى الموازنة بين رأى الطائفة الرابعة، وآراء الطوائف الثلاث قبل : [وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلّق به من العبادة وفارقه، يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعبد المطلق، ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة، عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره، فإذا رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة ٩/ ١٢٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ٤/ ٢٠٦٠ رقم ١٦ (٢٦٧٤)، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب: لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم ٤٦٠٩ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا به وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الوصية : باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/ ١٢٥٥ رقم ١٦٣١، وأبو داود فى : السنن : كتاب الوصايا : باب: ما جاء فى الصدقة عن الميت ٣/ ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب: فى الوقف ٣/ ٦٦٠ رقم ١٣٧٦، والنسائى فى : السنن : كتاب الوصايا : باب: فضل الصدقة عن الميت ٦/ ٢٥١ [المجتبى] ٤/ ١٠٩ رقم ٦٤٧٨ [الكبرى] .

لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾، حقًا ، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولى عليه رسم، حرٌ مجرد، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهِكَت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه، عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه ! والله المستعان، وعليه التكلان] (١) .

الجانب الثانى : علاقة حديث حنظلة : « ساعة وساعة » بفقه العبادة :

وواضح مما تقدم حول فقه العبادة أن حديث حنظلة صورة دقيقة للعبادة بشقيها، أو بقسميها : إذ فيه العبادة المخصوصة المقيدة المتمثلة فى الذكر، والفكر، والمراقبة، والتى عبَّر عنها حنظلة بقوله : « نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين »، والتى دعا إليها رب العزة ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ(١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(١٩٤)** ﴾ [آل عمران]، وقوله : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)** ﴾ [النساء : ١]، وقوله : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ودعا إليها النبى ﷺ بقوله حكاية عن يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ إن الله أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات : أن يعمل بها، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا

---

(١) انظر : تهذيب مدارج السالكين ١/ ١٠٤، ١٠٥ .

بها، وأنه كاد أن يبطئ بها . . . الحديث، وفيه : « وآمركم أن تذكروا الله، وإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله »(١) .

وقوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة ربه، ورجلٌ قلبه مُعلق فى المساجد، ورجلان تحابا فى الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله، ورجلٌ تصدّق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه »(٢) .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤/٢٠٢، والترمذى فى : السنن : كتاب الأمثال : باب: ما جاء فى مثل الصلاة والصيام، والصدقة ٥/١٤٨، ١٤٩ رقم ٢٨٦٣ كلاهما من حديث الحارث الأشعرى مرفوعًا، ولفظه : « إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعملهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مَثَل من أشرك بالله، كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال له : هذه دارى، وهذا عملى، فاعمل وأد إلىَّ فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك، وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة، ومعه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم . . . » الحديث، وعقّب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأذان : باب: من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة، وفضائل المساجد ١/١٦٨، وكتاب الزكاة : باب: الصدقة باليمين ٢/١٣٨، وكتاب الرقاق : باب: البكاء من خشية الله ٨/١٢٥، ١٢٦، وكتاب الحدود : باب: فضل من ترك الفواحش ٨/٢٠٣ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ فى الروايتين : الأولى والثانية، ومقتصرًا على صنف البكائين فى الرواية الثالثة وبتقديم بعض هذه الأصناف على بعض فى الرواية الأخيرة، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: فضل إخفاء الصدقة ٢/٧٥١، ٧١٦ رقم ٩١ من حديث أبى هريرة على القطع مع تقديم اليمين على الشمال فى التخفى بالصدقة، ومن حديث أبى سعيد، وأبى هريرة على الشك، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب: ما جاء فى الحب فى الله ٤/٥٩٨، ٥٩٩ رقم ٢٣٩١، من حديث أبى هريرة، أو أبى سعيد، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه، وقال : عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد، وعبيد الله بن عمر، رواه عن حبيب بن عبد الرحمن، ولم يشك فيه يقول : « عن أبى هريرة »، والنسائى فى : السنن : كتاب آداب القضاة : باب: الإمام العادل ٨/٢٢٢، ٢٢٣ من حديث أبى سعيد، أو أبى هريرة بمثل رواية البخارى الأخيرة، وأحمد فى : المسند ٢/٤٣٩ من حديث أبى هريرة، مع تقديم صنف : الذى ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه على الذى تصدق بصدقة فأخفاها .

وقوله ﷺ: « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر : مثل الحى والميت » (١) .

وفيه كذلك العبادة العامة المطلقة المتمثلة فى ملاعبة الأهل والولد، ومعالجة شؤون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها، والتى خاف منها حنظلة أن تكون طريقًا للنفاق فجاء يشكو حاله إلى النبى ﷺ، ولكن النبى ﷺ أفهمه أنها من العبادة بقوله: «ولكن ساعة وساعة ».

وجاءت عنه ﷺ أحاديث أخرى سبقت فى تعريف العبادة تؤكد ذلك، وأفضل العبادة من هذين القسمين اللذين جاء بهما الحديث : الحرص على مرضاة الله فى كل وقت وفى كل مكان بما يناسب هذا الوقت، وذلك المكان، فساعة الوعظ والتذكير فى حينها ومكانها أفضل من ملاعبة الزوجة والأولاد والاشتغال بشؤون المعاش، وساعة ملاعبة الزوجة والأولاد، والاشتغال بشؤون المعاش فى حينها ومكانها أفضل من الجلوس فى مجالس الوعظ والتذكير، وهكذا .

مع دوام التفكر فى آلاء الله فى النفس وفى الكون، ومراقبته فى كل هذه الساعات، بحيث يرى النعمة والمنعم معًا فى سائر الأحايين، وفى كل الأحوال .

الجانب الثالث : حديث حنظلة : « ساعة وساعة » وفقه غير سديد :

وقد فقه نفر من الناس من جوابه ﷺ لحنظلة بقوله : « ساعة وساعة »، أنه دعوة

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب: فضل ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ ٨/ ١٠٧ من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب ابن حجر فى فتح البارى ١١/ ٢١٠ على هذه الرواية بقوله: «سقط لفظ [ربه] الثانية من غير رواية أبى ذر هكذا وقع فى جميع نسخ البخارى»، ومسلم فى: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب: استحباب: صلاة النافلة فى بيته، وجوازها فى المسجد ١/ ٥٣٩ رقم ٧٧٩ (٢١١) عن عبد الله بن براد الأشعرى، ومحمد بن العلاء ، كلاهما عن أبى أسامة، عن بريد، عن أبى بردة، عن أبى موسى مرفوعًا بلفظ : « مثل البيت الذى يُذكر الله فيه، والبيت الذى لا يُذكر الله فيه مثل الحى والميت »، زاد ابن حجر فى : (الفتح ١١/ ٢١٠) فقال : «وكذا أخرجه الإسماعيلى، وابن حبان فى صحيحه جميعًا عن أبى يعلى، عن أبى كريب، وكذا أخرجه أبو عوانة عن أحمد بن عبد الحميد، والإسماعيلى أيضًا عن الحسن بن سفيان، عن عبد الله بن براد، وعن القاسم بن زكريا عن يوسف بن موسى، وإبراهيم بن سعيد الجوهرى، وموسى بن عبد الرحمن المسروق، والقاسم بن دينار، كلهم عن أبى أسامة، فتوارد هؤلاء على هذا اللفظ يدل على أنه هو الذى حدّث به بريد بن عبد الملك شيخ أبى أسامة، وانفرد البخارى باللفظ المذكور دون بقية أصحاب ابى كريب، وأصحاب أبى أسامة يشعر بأنه رواه من حفظه أو تجوز فى روايته بالمعنى الذى وقع له، وهو أن الذى يوصف بالحياة والموت حقيقة هو الساكن لا السكن، وأن إطلاق الحى والميت فى وصف البيت إنما يُراد به ساكن البيت، فشبه الذاكر بالحى، الذى ظاهره متزين بنور الحياة وباطنه بنور المعرفة، وشبَّه غير الذاكر بالميت الذى ظاهره عاطل، وباطنه باطل » .

من النبىﷺ إلى إطلاق العنان للنفس أن تأخذ حظها من الشهوات كما تشاء من غير قيود أو ضوابط، مُفسِّرين قولهﷺ لحنظلة : « ساعة وساعة »، بأن المراد : ساعة لقلبك أو ساعة لنفسك وساعة لربك، فالمرء فى الساعة الأولى ـ وهى ساعة القلب، أو النفس ـ حر فى سلوكياته وتصرفاته دون التزام بقيود أو ضوابط، أما فى الساعة الثانية ـ وهى ساعة الرب ـ فإنه ليس حرًا فى تصرفاته، وسلوكياته، بل لابد من الالتزام بالقيود، والضوابط الشرعية .

والحقيقة أن هذا الفقه غير سديد لأمور، منها :

١ ـ أن النبىﷺ مُرسل من قِبَل ربه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى صراط العزيز الحميد، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى] .

ولا يُعقل أن تكون هذه هى فحوى رسالته ثم يدعو الناس إلى ما يناقضها أو يعارضها من جعل الحياة قسمين : قسمًا لله، وقسمًا للنفس والشيطان .

٢ ـ وأنه قد جاءت عنهﷺ الأخبار بالدعوة إلى الاهتمام بحق الأهل والأولاد، والاشتغال بشؤون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها مع الترتيب والنظام : إذ جاء عنه قولهﷺ : « كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهى مسؤولة عنهم، وعبدُ الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكُلكم راعٍ، وكُلكم مسؤول عن رعيته»(١) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجمعة: باب: الجمعة فى القرى والمدن ٢/٦، وكتاب الجنائز: باب: قول النبىﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته » ٢/ ١٠٠ معلقًا، وكتاب الاستقراض: باب: العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه ٣/ ١٥٧، ١٥٨، وكتاب العتق: باب: كراهية التطاول على الرقيق، وباب: العبد راع فى مال سيده ٣/١٩٦، ١٩٧، وكتاب الوصايا: باب: تأويل قول الله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : ١١] ٤/٦، وكتاب النكاح باب: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦]، وباب: المرأة راعية فى بيت زوجها ٧/ ٣٤، ٤١، =

وقوله ﷺ : « أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » (١) .

وقوله ﷺ : « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهى له صدقة » (٢) .

وقوله ﷺ : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجِرتَ بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك » (٣) .

= وكتاب الأحكام: باب: قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] ٩/ ٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب: فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٥٩، ١٤٦٠ رقم ٢٠، وأبو داود فى: السنن: كتاب الخراج، والإمارة، والفىء : باب: ما يلزم الإمام من حق الرعية ٣/ ٣٤٢، ٣٤٣، رقم ١٧٠٥، وأحمد فى: المسند ٢/ ٥، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١ كلهم من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، وعقّب الترمذى على حديثه بقوله : « وحديث ابن عمر حديث حسن صحيح » .

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم، أو حبس نفقتهم عنهم ٢/ ٦٩١، ٦٩٢ رقم ٩٩٤ (٣٨) من حديث أبى قلابة عن أبى أسماء، عن ثوبان مرفوعًا بهذا اللفظ، وفى آخره : « قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال »، ثم قال أبو قلابة : « وأى رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم، أو ينفعهم الله به، ويغنيهم »، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة ٤/ ٣٠٤ رقم ١٩٦٦ من حديث أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان مرفوعًا بمثل لفظ مسلم وعقّب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فضل النفقة فى سبيل الله تعالى ٢/ ٩٢٢ رقم ٢٧٦٠ من حديث أبى قلابة عن أبى أسماء، عن ثوبان مرفوعًا بمثل حديث مسلم، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، من حديث أبى قلابة عن أسماء، عن ثوبان مرفوعًا بمثله وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب: ما جاء إن الأعمال بالنية، والحسبة، ولكل امرئ ما نوى ١/ ٢١، ٢٢ عن حجاج بن منهال، وكتاب المغازى : باب: منه ٥/ ١٠٧ عن مسلم ابن إبراهيم، وكتاب النفقات: باب: فضل النفقة على الأهل ٧/ ٨٠ . . . عن آدم بن أبى إياس، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: فضل النفقة، والصدقة على الأقربين، والزوج، والأولاد . . . ٢/ ٦٩٥ رقم ١٠٠٢ (٤٨) عن عبد الله بن معاذ، عن أبيه، وعن أبى بكر بن نافع، ومحمد بن بشار (بندار) كلاهما عن محمد بن جعفر (غندر)، وعن أبى كريب عن وكيع، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب: ما جاء فى النفقة على الأهل ٤/ ٣٠٣ رقم ١٩٦٥ عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، والنسائى فى : السنن : كتاب الزكاة : باب: أى الصدقة أفضل ٥/ ٦٩ [المجتبى] ٢/ ٣٦ رقم ٢٣٢٥ (٤) [الكبرى] عن ابن بشار، عن غندر، وكتاب عشرة النساء : باب: ثواب النفقة على الذرية ٥/ ٣٨٢، ٣٨٣ رقم ٩٢٠٥ (٢) عن إسماعيل بن مسعود، عن بشر بن المفضل، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٧٣ عن وكيع ثمانيتهم، أعنى : [حجاج بن منهال، ومسلم بن إبراهيم، وآدم بن أبى إياس، ومعاذ بن معاذ العنبرى، ومحمد بن جعفر، ووكيعا، وعبد الله بن المبارك، وبشر بن المفضل]، عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن عبد الله بن يزيد الأنصارى الخطمى ـ وله صحبه ـ عن أبى مسعود البدرى (عقبة بن عمرو) مرفوعًا به، وبنحوه .

(٣) سبق تخريجه ، ص ١٠٩ .

وقوله ﷺ : « كفى بالمرء إثمًا أن يُضيع من يقوت » [١] .

وقوله ﷺ : « إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، ومُنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إلىَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمى بعدما علمه رغبةً عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها » [٢] .

وقوله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة » [٣] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: فضل النفقة على العيال والمملوك ... ٢/ ٦٩٢ رقم ٩٦٦ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بلفظ : « كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته »، وأبو داود فى : السنن : كتاب الزكاة : باب: فى صلة الرحم ٢/ ٣٢١ رقم ١٦٩٢ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ، والنسائى فى : السنن [الكبرى] : كتاب عشرة النساء: باب: إثم من ضيع عيال ٥/ ٣٧٤ رقم ٩١٧٦ (١)، ٩١٧٧ (٢) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ، غير أنه قال فى الرواية الأولى : « يعول » بدل « يقوت »، وأحمد فى : المسند ٢/ ١٦٠، ١٩٣، ١٩٥ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) سبق تخريجه فى هذا الجزء ، ص ١٠٩ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المزارعة : باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ... ٣/ ١٣٥ عن قتيبة، وعبد الرحمن بن المبارك، وكتاب الأدب: باب: رحمة الناس والبهائم ٨/ ١٢ عن أبى الوليد، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البيوع: باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٥٥٣ (١٢) عن يحيى بن يحيى، وقتيبة، ومحمد بن عبيد بن حساب، والترمذى فى: السنن: كتاب الأحكام: باب: ما جاء فى فضل الغرس ٣/ ٦٦٦ رقم ١٣٨٢ عن قتيبة .

وأحمد فى المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢٨، ٢٢٩ عن يونس، ٢٤٣ عن عفان سبعتهم، أعنى : [قتيبة، وعبد الرحمن بن المبارك، وأبا الوليد، ويحيى بن يحيى، ومحمد بن عبد الله بن حساب، ويونس، وعفان] عن أبى عوانة الوضاح اليشكرى، عن قتادة، عن أنس مرفوعًا، واللفظ لمسلم، وعقّب الترمذى على حديثه بقوله : « حديث أنس حديث حسن صحيح » .

ومسلم فى : الصحيح : « كتاب المزارعة (المساقاة) : باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٥٥٣ (١٣) عن عبد بن حميد، عن مسلم بن إبراهيم، عن أبان بن يزيد .

والبخارى فى : الصحيح : كتاب المزارعة : باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٣/ ١٣٥ قائلاً : «وقال لنا مسلم : حدثنا أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس مرفوعًا، ولفظ مسلم : أن نبى الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر امرأة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: من غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟ قالوا: مسلم، بنحو حديثهم »، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٩٢ عن بهز، وعفان قالا : حدثنا أبان، عن قتادة، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر امرأة من الأنصار ... الحديث .

وفى رواية ثانية : « ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة » [١] .

وقوله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء » [٢] .

٣ ـ وأنه ﷺ جاءت عنه الأخبار الناطقة بعدم رضاه عمن ضيعوا حقوق الأهل والأولاد، أو تركوا الاشتغال بالمعاش، وعاشوا عالة على غيرهم.

هذا عبد الله بن عمرو بن العاص كان يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يقضى حق أهله ، فقال النبى ﷺ : « ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ قلت : بلى يا رسول الله، قال : « فلا تفعل : صم، وأفطر، ونم، وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر » [٣] .

وعن أبى جحيفة رضي الله عنه قال : « آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له : كل فإنى صائم، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل قال : فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال : نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب: فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٨ رقم ١٥٥٢ (٧ ـ ١١) من عدة طرق إلى جابر بن عبد الله مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه، والدارمى فى : السنن: كتاب البيوع : باب: فى فضل الغرس ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩ من حديث جابر بن عبد الله عن أم مبشر عن النبى ﷺ به، وأحمد فى : المسند ٦/ ٤٢٠ من حديث جابر عن أم مبشر مرفوعًا به .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البيوع : باب: ما جاء فى التجار، وتسمية النبى ﷺ إياهم ٣/ ٥١٥ رقم ١٢٠٩، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب: فى التاجر الصدوق ٢/ ٢٤٧ من حديث أبى سعيد مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الصوم: باب: حق الجسد فى الصوم، وباب: حق الأهل فى الصوم ٣/ ٥١، ٥٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب: النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوت به حقًا ٢/ ٨١٣ ـ ٨١٨ رقم ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، والنسائى فى : السنن : كتاب الصوم : باب: صوم يوم وإفطار يوم ٤/ ٢١٠، ٢١١، وباب: صوم عشرة أيام من الشهر ٤/ ٢١٥، كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما واللفظ للبخارى .

عليك حقًا ، فأعط كل ذى حق حقه ، ثم أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبى : « صدق سلمان » (١) .

ويقول ﷺ : « من تعلَّم الرمى، ثم تركه فليس منا » (٢) .

٤ ـ وأنه ﷺ كان يُحسن معاشرة أهله حتى قال : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى » (٣) .

وكان لحسن عشرته ﷺ هذه صور، منها : مسابقته لأهله ؛ إذ تقول عائشة رضي الله عنها خرجتُ مع رسول الله ﷺ وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه: « تقدموا » ثم قال لى : « تعالى حتى أسابقك » فسابقنى، فسبقته، ثم خرجتُ معه فى سفر آخر، وقد حملتُ اللحم، فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه : « تقدموا »، ثم قال لى : «تعالى أسابقك »، فسابقنى ، فسبقنى، فضرب بيده كتفى، وقال : « هذه بتلك » (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب: من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ٣/ ٤٩، ٥٠، وكتاب الأدب : باب: صنع الطعام، والتكلف للضيف ٨/ ٤٠، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب: منه ٤/ ٦٠٨، ٦٠٩ رقم ٢٤١٣ كلاهما من حديث أبى جحيفة، عن سلمان مرفوعًا به، وعقّب الترمذى على حديثه قائلاً : « هذا حديث صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب: فضل الرمى والحث عليه ٣/ ١٥٢٣ رقم ١٩١٩، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: الرمى ٤/ ٢٨، ٢٩ رقم ٢٥١٣ كلاهما من حديث عقبة بن عامر مرفوعًا، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب: فضل أزواج النبى ﷺ ٥/ ٦٦٦، ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى، وإذا مات صاحبكم فدعوه »، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثورى، ما أقل من رواه عن الثورى، وروى هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبى ﷺ مرسل »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب: حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٢/ ١١٧، ١١٨ بقوله: « الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها، رواه الترمذى فى جامعه، وابن حبان فى صحيحه، وأما رواية ابن عباس فإسناد ضعيف ؛ لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال عبد الحق : ليس بالقوى، وقال ابن القطان : مجهول الحال »، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا : « خياركم، خياركم لنسائهم »، وعقّب عليه البوصيرى فى : « المصباح ٢/ ١١٨ بقوله : « إسناده على شرط الشيخين، والحديث رواه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال : حسن »، والدارمى فى : السنن : كتاب النكاح : باب: فى حسن معاشرة النساء ٢/ ١٥٩ بإسناد ولفظ الترمذى .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فى السبق على الرجل ٣/ ٦٥، ٦٦ رقم ٢٥٧٨، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب: حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٩، وعقّب عليه البوصيرى كما يقول الشيخ محمد عبد الباقى قائلاً: «إسناده صحيح على شرط البخارى، =

ومنها إباحته لهن اللعب، والنظر لمن يلعبون، وغيرها من الصور : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كنتُ ألعب بالبنات فى بيت رسول الله ﷺ وكان لى صواحب يأتينى فيلعبن معى، فيتقمعن إذا رأين رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يُسَرِّبهُنّ إلىّ ، فيلعبن معى » (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : [دخل الحبشة المسجد يلعبون ، فقال لى : « يا حميراء : أتحبين أن تنظرى إليهم ؟ » فقلت : نعم، فقام بالباب ، وجئتُه فوضعت ذقنى على عاتقه، فأسندتُ وجهى إلى خده، قالت : ومن قولهم يومئذ : أبا القاسم طيبًا، فقال رسول الله ﷺ: « حسبك »، فقلت : يا رسول الله لا تعجل، فقام لى، ثم قال : «حسبك»، فقلت : لا تعجل يا رسول الله ، قالت : وما لى حب النظر إليهم، ولكنى أحببت أن يبلغ النساء مقامه لى ، ومكانى منه] (٢) .

وليس يعقل أن يحسن النبى ﷺ عشرة النساء ثم يدعو إلى إهمال الأهل، أو على الأقل : سوء عشرتهن .

= وعزاه المزى فى الأطراف للنسائى، وليس هو فى رواية ابن السنى »، وأقول إن عزو المزى صحيح بالنسبة للسنن الكبرى، إذ أخرجه النسائى هناك : كتاب عشرة النساء : باب: مسابقة الرجل زوجته ٥/ ٣٠٣ رقم ٨٩٤٢ ـ ٨٩٤٥ (١ ـ ٤) من حديث : هشام بن عروة عن أبيه، وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن كلاهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وأحمد فى : المسند ٦/ ٣٩، ١٢٩، ١٨٢، ٢٦١، ٢٨٠، من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ للنسائى .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب: الانبساط إلى الناس ٨/ ٣٧، ومسلم فى: الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب: فى فضل عائشة رضي الله عنها ٤/ ١٨٩٠، ١٨٩١ رقم ٢٤٤٠، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب: فى اللعب بالبنات ٥/ ٢٢٦ رقم ٤٩٣١، والنسائى فى : السنن : كتاب النكاح : باب: إباحة الرجل اللعب لزوجته بالبنات ٥/ ٣٠٥، ٣٠٦ رقم ٨٩٤٦، ٨٩٤٩ (١ ـ ٤) [الكبرى]، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب: حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٧ رقم ١٩٨٢، وأحمد فى : المسند ٦/ ٥٧، ١٦٦، ٢٣٤، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، واللفظ للبخارى، والنسائى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلاة : باب: أصحاب الحراب فى المسجد ١/ ١٢٣، وكتاب العيدين : باب: إذا فاته العيد يصلى ركعتين، وكذلك النساء ٢/ ٢٩، ٣٠ وكتاب الجهاد : باب: الدرق ٤/ ٤٧، وكتاب المناقب : باب: قصة الحبش وقول النبى ﷺ: يا بنى أرفدة ٤/ ٢٢٥، وكتاب النكاح : باب: نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة ٧/ ٤٨، ٤٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب العيدين : باب: الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه فى أيام العيد ٢/ ٦٠٨ ـ ٦١٠ رقم ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، والنسائى فى : السنن : كتاب العيدين : باب: اللعب بين يدى الإمام يوم العيد، وباب: اللعب فى المسجد يوم العيد، ونظر النساء إلى ذلك ٣/ ١٩٥، ١٩٦ [المجتبى] ، وكتاب عشرة النساء : باب : إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب ٥/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩ رقم ٨٩٥١ ـ ٨٩٥٨ (١ ـ ٨) ، وأحمد فى: المسند ٦/ ٥٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٦٦، ١٨٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٧٠، كلهم من حديث عائشة مرفوعًا واللفظ للنسائى .

٥ ـ وأخيرًا قد جاء عنه ﷺ صراحةً ما يبطل هذا الفقه المعوج من أساسه ، إذ يقول ﷺ : «إن لكل عابد شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة، فإما إلى سُنة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك »[1] .

وهكذا يتبين أن مقولة : « ساعة لقلبك أو نفسك، وساعة لربك »، استنادًا لهذا الحديث أو غيره مقولة باطلة، يُروِّج لها أصحاب الأهواء، وعبّاد الشهوات، ويرفضها المسلمون الصادقون، والله أعلم .

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

١ ـ قوة الإيمان، وشفافية النفس، وصفاء القلب فى جيل الصحابة، الأمر الذى حملهم على التفتيش دومًا عمّا فى نفوسهم والسعى لتدارك الخلل الواقع فيها حتى كتب الله لهم النصر والتمكين، وعلينا أن نقتدى بهم فى ذلك، وأن نسلك سبيلهم .

٢ ـ أن العبادة فى الإسلام تشمل الحياة جميعًا، إذ هى كما ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ اسم أو كلمة جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأفعال الظاهرة والباطنة، وحديث : « حنظلة . . . ساعة وساعة » خير شاهد على ذلك .

٣ ـ أن الاشتغال بشؤون المعاش من تجارة وصناعة وزراعة ونحوها، وكذلك القيام بحق الأهل، والولد ليس مما يشين أو يعاب، بدليل إقرار النبى ﷺ لحنظلة، ومعه الصديق، على ما كانا يفعلان من الاشتغال بشؤون المعاش بحق الأهل والولد قائلاً : «ولكن ساعة وساعة ».

٤ ـ أن الاستدلال بالحديث : ساعة وساعة » على أن الحياة قسمان : قسم لله يكون الإنسان فيه مقيدًا بالعبودية، وقسم للنفس يكون فيه الإنسان حرًا طليقًا، استدلال غير صحيح يأباه لفظ الحديث، ويأباه كتاب الله، وسنة النبى ﷺ.

---

(١) الحديث سبق تخريجه ، ص ١٠٣ .